الرواية العالمية

٢٠

العاشق

تأليف: مرجريت دوراس

ترجمة وتقديم: محمود قاسم



الرواية العالمية (٢٠)

العاشق

تأليف

مرجريت دوراس

ترجمة وتقديم

محمود قاسم



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٠

هذه هى الترجمة الكاملة لرواية « العاشق »
لمارجريت دوراس .
L'AMANT, de MARGUERITE DURAS
EDITIONS DE MINUIT 1984.

مارجريت دوراس ٠٠ وموجة الرواية الجديدة !

بقلم : محمود قاسم

● اجتمعت ثلاثة عوامل هامة فى رواية « العاشق » لمرجريت دوراس بحيث لا يمكن تجاهلها عند الحديث عنها او تقديمها الى القارىء العربى ٠٠ هذه العوامل تتمثل فى أنها رواية تنتمى كاتبتها الى « الرواية الجديدة » التى أثارت نقاشا طويلا حول ماهيتها واهميتها وجدواها ومصيرها فى الثلاثين عاما الماضية ٠ أما العامل الثانى فهو انها فازت بجائزة جونكور الأدبية عام ١٩٨٤ ٠٠ وثالثا لأن كاتبتها هى مرجريت دوراس وهى كاتبة متنوعة الأنشطة والعطاء وتعتبر من ركائز الابداع الأدبى والسينمائى والمسرحى فى النصف الثانى من القرن العشرين ٠٠

وقبل أن نتحدث عن هذه الرواية ٠٠ أو نقدمها الى القارىء العربى يهمنا أن نتناول العوامل الثلاثة التى وراء هذه الرواية ٠٠

فى عام ١٩٨١ وبمناسبة حديث أجرى مع الكاتب المسرحى يوجين أونسكو حول مسرح العبث قال ان الذين هاجموا هذا المسرح فى أوائل الخمسينات وقذفوا أونسكو بالبيض قد رشحوه بعد ثلاثين عاما ليكون عضوا فى الأكاديمية الفرنسية ٠٠ أى أن هذا المسرح ، بدخوله باب الأكاديمية ، قد أصبح كلاسيكيا ٠ نفس الشىء حدث فى عام ١٩٨٤ حين نال كلود سيمون جائزة نوبل فى الأدب ٠٠ ولأن أكاديمية ستوكهولم تمنح جائزتها للأدب الكلاسيكى غالبا ٠

فقد كان اعلان فوز سيمون بالجائزة دليلا أكيدا على أنها أصبحت حالات كلاسيكية ٠٠ وقد جاءت الرواية الجديدة كظاهرة أدبية فريدة تستحق الاحترام والوقوف عندها ، فهي لم تأت من فراغ ٠ ولم تكن محاولات تجريب عبثية ، كما تصور البعض ، مثلما حدث في بعض حركات الفن التشكيلي ٠ وانما هي مدرسة لها كتابهـا المبدعون ، ومنظرون ، ونقاد ٠٠ وكان أغلب أبناء هذه المدرسة هم كتابهـا ومبدعوها ٠٠ وهم الذين راحوا يؤصلون اتجاهاتها وعطاءها ٠٠ وفيما بعد سعي هؤلاء الى تقديمها لجمهور السـينما ، والمسرح ، بأنفسهم فأخرجوا رواياتهم مباشرة دون الاستعانة بأي مخرجين من أي مدرسة ٠٠

وأعتقد أن هناك مداخل عديدة للرواية الجديدة من أجل فهمها . منها كتاب « **نحو رواية جديدة** » الذى كتبه الآن روب جرييه ٠ ومنها كتاب « حوار فى الرواية الجديدة » المنشور فى بغداد عام ١٩٨٨ من ترجمة د٠ نزار صبرى ٠ ومنها بالطبع الحوار الذى أجريناه مع روب جرييه فى بغداد فى نوفمبر ١٩٨٨ أثناء عقد مهرجان المربد الشعرى التاسع ٠ ففي هذا الحديث راح الكاتب يقدم هذه الرواية الجـديدة بشكل علمى مفصل ٠ حيث قال : « منذ بداية القرن التاسع عشر تغير شكل العالم الغربى ٠ أو العالم بصورة عامة ٠ لننظر مثلا الى مفهوم العلم ٠ فليس للعلم الآن أى علاقة بالعلم الذى عرف فى عصر اونوريه دى بلزاك ٠ فقد كان بلزاك يتصور أن العـلم هو الشئ الحقيقى ٠ أما العلماء المحـدثون فلا يتصـورون الآن أن العلم شئ حقيقى ٠ فالتمارين الذهنية الرياضية التى تسمح بالذهاب الى القمر ليست حقيقية ٠ انها متخيلة ٠ اذن مفهوم العـلم لم يعد نفس المفهوم ٠ وأيضا تغير مفهوم علم النفس كليا ٠ وهكذا فان علم النفس تغير عما كان عليه فى مطلع القرن العشرين ٠ ولذلك نجد أن علاقة الانسان بالعالم قد تغيرت ٠ ولكن النقـد الغربى مايزال يريد أن يحافظ على موقع الرواية منذ مائة وخمسين عاما ٠ ولهذا السـبب

كانت الرواية الجديدة هي الشيء الوحيد الذي ينتقدونه من خلال سؤال مثل : لماذا لا نكتب مثل بلزاك ؟ ٠

« لقد تغيرت فرنسا كبلد من البلدان ، غير أن النقد الأدبى مازال مرتبطا بالقرن التاسع عشر ٠ انه نقد محافظ ٠

« ربما لأننى لم يكن تكوينى أدبيا ٠ بل كان علميا . « كمهندس بايولوجى » وبالنسبة لى فقد أدركت كرجل علمى أن العلم شيء مخترع ٠ والعلم يعنى بالنسبة لى التقدم الى آفاق أبعد ٠ ففى العلوم لا نعود الى المصادر الماضية بقدر ما نفكر فى المستقبل وعندما بدأت بكتابة الرواية اتبعت هذه القاعدة العلمية ٠

« أى أننى أنظر دائما الى ما هو أمامى ٠ ولهذا السبب ، سلكت سلوك الكاتب العلمي وأدركت أن كل كاتب ينبغى أن يبدع شيئا جديدا ٠ ولذلك كان القانون السائد يسقط على رأسى كالسيف وكانوا يقولون لى : « الرواية لا تكتب هكذا » ٠

« أعتقد أن الحداثة تتجسد هنا ، فالحداثة بالنسبة لى خلق شيء مستقبلى دائما ٠ وفى هذا الابداع الحداثى توجد نقاط عديدة ٠ وأول نقطة يوجد الفراغ ٠ وأريد أن أشرح الفكرة بشكل أفضل ٠ فمنذ مائة وخمسين عاما مضت كانت شخصية الانسان في علم النفس كاملة ٠ وعلى سبيل المثال كان الرجل البخيل ـ جوريو ـ عند بلزاك بخيلا بصفات محددة ٠ لديه وجه يشير الى البخل ومفرداته تدل على أنه بخيل ٠ وحتى اذا كان عنده شاربان فانهما شاربا بخيل ٠ وسترته سترة بخيل ٠ وأى فعل من أفعاله هو عبارة عن فعل للرجل البخيل ٠ اذن ، فى هذه الحالة ليس هناك ثمة فراغ فى الشخصية ، فكل شيء ملىء ومنسجم ومحدد ٠ ولكن فى العالم الحقيقى هذه الشخصية ليست موجودة ٠ وبالنسبة لعلم النفس فانه كان دائما يبحث عن هذا النوع فى الانسان ٠ وهنا كل شيء انقلب ٠ فلماذا يقوم البخيل بفعل يفند فكرة البخل فتتغير كل الموازين ٠٠ ؟

ويقول جرييه أيضا ـ انظر الحديث المنشـــور معه فى جريدة القادسية العراقية فى ٢٦ نوفمبر ١٩٨٨ ـ ان : « مســـألة الفراغ مفهومة فى العلوم · فمنذ أينشتاين انقلبت المفاهيم العلمية وأصبحت النظرية العلمية الصارمة الآن هى النظرية الناقصة التى يكون فيها نقص ، وليست النظرية التى تكون كاملة وقاطعة منذ مائة وخمسين عاما ·

« الشيء الوحيد الذى ينسجم مع نفسه ومتكامل هو الموت · واذا كان العلم حيويا دائما يكون هناك فراغ · ففى كل الميادين : فى الفلسفة وعلم النفس ، وكل الأنشـطة الأسـاسية حدث ذات الشيء · وفى كل هذه الميادين · وكل هذه النظريات ظهرت مسألة البحث عن فراغ دائم · ويصح هذا القول على الروائى · وأن أول زوائية فى الحداثة هى « **المسوسون** » لدوستويفسكى · وهى كتاب رائع لأن الشخصية الرئيسية فى الرواية ، ستراڤوجين ، شخصية غائبة وغير مفهومة · انه قائد لمجموعة ثورية لكنه شخصية غائبة · لا أحد يعرف ماذا تفعل هذه الشخصية · ولا يفهم القراء ذلك · والشرطة لا تفهم ذلك · وحتى أعضـــاء المنظمة الثورية لا يفعلون ذلك · وهذا الغياب يعطى قوة كبيرة للشخصية حضورا وتجسيدا ولهذا السبب أصبحت شخصيات هذه الرواية تثير الاشكاليات · ان هذه الشخصيات الغائبة نفسها تتكرر فى معظم روايات القرن العشرين فتراها فى روايات ويليام فوكنر وفرانتز كافكا وجيمس جويس · فدائما هناك فراغ فى الرواية · وهو شخصية ملتبسة غير مفهومة · والآن نرى دائما الرواية وهى تطرح تساؤلات حول نفسها · من خلال هذا كله أحاول أن أعطى اجابة لسؤال الحداثة لأقربها للقراء بشكل حياتى ·

« لقد كان الكاتب الكلاسيكى آنذاك كاتبا مبدعا يفهم كل حقائق العالم تتركز مهمته ووظيفته فى أن يجلس الى مائدة الكتابة

ليكتب عن حقيقة يعرفها جيدا · ويشرحها للقراء · لكن الكاتب الحديث هو رجل يجلس الى مائدة الكتابة لأنه لا يفهم العالم ·

ويرى جرييه « آن الرواية الجديدة كاللوحة التى يصنعها الرسام من خلال اللون · فالروائى يصنع الرواية بالكلمات · فى اللوحة خطوط وألوان ، وعندما تتحول الى كلمات، مثل الموسيقى التى تصنع النوتات · انها نفس الشيء · لكن المواد الأولية هى التى تختلف · واللغة مادة مختلفة تماما عن المواد الأخرى · لأنها تستخدم فى عملية التواصل ··

ويرى نزار صبرى ان مسار الرواية الجديدة يتحدد فيما أرادت من الأشكال الجديدة التى تقوم على اللغة التى تقيم بشكل ذاتى عدة علاقات بين العناصر التى يمكن أن تكون متباعدة فى الزمن والمكان· وتكشف الرواية الجديدة عن هذه اللغة التى تتحدث فينا من خلال الاستعارة التى تقيم شبكة من العلاقات ·

وتعالج الرواية الجديدة فى مجملها عدة موضوعات من بينها مشاكل الالتزام والتأثير والتقنيات الروائية · والعلاقة بين التنظير والابداع · ومثلما جاء فى كتاب نحو رواية جديدة الذى ترجمه مصطفى ابراهيم أن أهم سمات الرواية الجديدة انها رفضت فكرة الشخصية والحكاية والالتزام · وان التفسيرات ستكون غائبة ومفترضة فى مواجهة حضور البطل · وان على اللغة الأدبية ان تتغير · وانه ليس هناك أى عمل من الأعمال الأدبية المعاصرة يتفق والقواعد النقدية الثابتة · وانه يلزم لتفهم وتناول الرواية الجديدة ناقد له مفرداته اللغوية الخاصة التى تتناسب ولغة ومفاهيم هذا اللون من الرواية · كما ان الرواية الجديدة فقدت اليوم سندها الأكبر وهو البطل ·· والحدوتة ·

وفى الرواية الجديدة نرى الأشياء ليست على شىء من التنظيم الذى تشاهده فى الواقع الذى هو ملء دوما بالفجوات والانقطاع ·

وهو لا يمكن ان نحدد به شكلا متكاملا • بل هناك مجموعة من الجزئيات المتناثرة •• التى يمكن جمعها فى اطار عام •

وأثناء لقاء بغداد مع جرييه كشف مدى الحب الذى يكنه أبناء هذه الرواية لبعضهم • ومدى تماسكهم معا • وقد وجدت الرواية أبناءها المخلصين مثل آلان روب جرييه وميشيل بيتور وكلود سيمون وناتالى ساروت • وهناك سمات عامة فى كتابات هؤلاء الأدباء منها :

● فى الوقت الذى تتسم فيه الروايات المعاصرة بضخامة الحجم • فان الروايات الجديدة تتسم بصغر حجمها ، مثل رواية « العاشق » ، وذلك على غير عادة ما اعتاد القارىء قراءته من روايات • وأكثر هذه الروايات لها ناشر مؤمن بأهميتها مثل دار نشر « مينوى » الفرنسية •

● ينكر الكثيرون من الروائيين الجدد أن لهم مدرسة • بل هناك حركات أدبية • وفى هذه الحركات هناك نوع من الشعور بالمشاكل الحياتية المطروحة فى العالم • لكن ذلك يتم من خلال اعطاء أهمية ثانوية للغة ــ هذه اللغة ــ التى تفقد معانيها دائما • وتصبح شيئا غير واضح • فتصبح مجردة •

● يرى كتاب الرواية الجديدة أن النقد الذى يتطرق الى الرواية الجديدة يتفاوت فى أهميته ويقول بوتور ان النقاد لا يهتمون سوى ببعض ملامح هذا العمل • فهو مثل بذرة تنبت تدريجيا وتزهر أزهارا فى عقول الناس •• بينما يرى جرييه ان النقد مهم ، حتى وان كان سلبيا « اذ انه يكشف النقاب عن أساطير ثقافية لا يرغب فى تقبلها ولكنها فى الحقيقة • ذات تأثير سلطوى واجتماعى » •

● يقول جان ريكاردو فى العدد رقم ٢٤٢٧ من مجلة لونوفيل ليترير ان الرواية الجديدة تستقبل دائما عملاء جددا ، ويمكن أن نقول ان الفكرة التى جاءت بالرواية الجديدة هى فكرة ثقيلة لها العديد من القراء ، ويكفى ان نذكر ما كتبته الصحف منذ أكثر من اثنى عشر عاما · حيث قالت ان الأمر يتعلق بموضة ستختفى مثلما اندثرت أشياء كثيرة · ومن الأفضل ان تنكسر ·· « ويقول الكاتب ان الصحف التى راحت تتحدث عن هذا قد اختفت · وبقت الرواية الجديدة · « لا أقول هذا لأنهم أعلنوا عن موت الرواية الجديدة · ولكنهم لأنهم هم قد ماتوا · ويكفى أن سجلات الوفيات قد تضم أحيانا أسماء لم يدفن أصحابها بعد · اليوم الأمور تستمر » ·

ومن أجل تأصيل حركتهم الأدبية · أنشأ الروائيون الجدد فى فرنسا جائزة أدبية تمنح للأدب التجريبى القريب فى شكله من الرواية الجديدة ·· وهى جائزة مدسيس · وفى السنوات الأخيرة خصص فرع من هذه الجائزة للأدب الأجنبى المترجم الى اللغة الفرنسية · وفى السنوات الأخيرة منحت لكتاب تقليديين حاولوا التجريب فى بعض رواياتهم مثل مارت روبير وكلود ديوران وكرستيان روشفور ·· فضلا عن أبناء الرواية الجديدة وعلى رأسهم من الجيل الجديد جورج بيريك ··

يعنى هذا ان الجوائز الأدبية الأخرى لا تمنح للروايات الجديدة · أو الرواية التجريبية · مثل جائزة فيمينا و انتراليه ، وجائزة الأكاديمية الفرنسية · وبالطبع جائزة جونكور ·· وهى أكثر الجوائز الفرنسية كلاسيكية كما أنها أكثر الجوائز أهمية فى الأدب العالمى بعد جائزة نوبل فى السويد ·· وقد منحت على مدى تسعين عاما لأهم كتاب الرواية الفرنسية على الاطلاق مثل رومان جارى ، واندريه مالرو وهنرى ترويا · والطاهر بن جلون وميشيل تورنييه

وباتريك موديانو .. كما منحت للعديد من الكتاب المغمورين عن روايات جيدة كتبوها . فهي تمنح للروايات الجيدة أكثر منها للأدباء . حيث يتم تصفية الروايات المنشورة خلال العام الذى تمنح فيه الجائزة الى ست روايات يتم الاقتراع عليها من قبل أعضاء أكاديمية جونكور .. والجائزة تمنح اذن للرواية وليس للكاتب .. فكم من روايات هامة راح كتابها فيما بعد ، فى طى النسيان .. وكم من كتاب كبار لم ينالوا قط شرف الفوز بهذه الجائزة .. وهى تمنح للكاتب مرة واحدة فقط فى حياته ..

وقد أسس أكاديمية جونكور اثنان من الأدباء هما الاخوان ادمون وجول جونكور فى أواخر القرن الماضى . وقد كانا صحفيين يكتبان الرواية . ولهما دراسات فى تاريخ الفن ونظريات الطبيعة . أسسا معا جريدة . « جورنال » وكتبا فيها . ومن أهم رواياتهما : « الفتاة اليزا » . و « فوستين » ثم « جرمين لاسرتو » و « سليمان » . وقد مات ادمون عام ١٨٧٠ وأوصى ، مثلما فعل الفريد نوبل فيما بعد ، ان تخصص ثروته لتشجيع الابداع الفنى ومن حيثيات منح الجائزة ان تمنح « للتعبير الصادق عن معاناة الانسان المعاصر ازاء قضايا الانسانية . وان تبتعد هذه الأعمال عن الصراعات السياسية والطائفية داخل فرنسا والعالم » .

ومنحت أول جائزة جونكور عام ١٩٠٣ لكاتب راح طى النسيان يدعى جون انطون عن روايته « قوة العدو » وقد منحت الأكاديمية جائزتها للعديد من الشباب .. ويتكون مجلس ادارتها من عشرة أعضاء يعتبرون من الأدباء المميزين فى فرنسا مثال هيرفيه بازان (الرئيس) وميشيل تورنييه وفرانسوا نورسييه وارمان لانوا ، وفرانسواز ماليه جوريس .

وفى الثمانينات منحت الجائزة لكتاب تتراوح أعمارهم بين الأربعين والخمسين الا فى حالتين هما لوسيان بودار عام ١٩٨١

ومرجريت دوراس عام ١٩٨٤ . أما بقية الأدباء الذين حصلوا عليها فهم أقل شهرة ، فى أغلبهم ، ولم تواتهم أى شهرة سواء بعد الجائزة أو قبلها سوى الطاهر بن جلون . أما بقية الأسماء فلم يلتفت اليهم أحد بعد فوزهم بالجائزة مثل ايف نافار وميشيل هوست واريك أورسنا ودومنيك فرنانديز » .

ولأن رواية « العاشق » بمثابة تجربة خاصة بالغة الذاتية عاشتها الكاتبة فلا يمكن فصل الحديث عن هذه الرواية عن سيرتها الذاتية . فأسرتها هى احدى الأسر التى رحلت الى الهند الصينية ابان الاحتـلال الفرنسى لفيتنام . عاشت الأسرة بأكملها هناك : الأم والأب . والاخوة . وقد وصفت مرجريت أحوال أسرتها وصفا دقيقا فى هذه الرواية ، فهى أسرة فقيرة فى وسط استعمارى ملىء بالأجواء الخانقة .. واذا كان هناك تميز ، كما ترى الكاتبة ، بين الجنس الأبيض والجنس الأصفر . فان أسرة الكاتبة كانت تعيش فى قاع المجتمع . فالأم لا تجد أموالا من أجل شراء ملابس لأولادها . وهى تعمل مديرة لاحدى المدارس . وقد ولدت مرجريت عام ١٩١٤ فى سايجون . والجدير بالذكر انه فيما قبل نشر روايتها «العاشق» فان سيرتها الذاتية كانت معتمة وعليها هالة سوداء . ومن هذه الرواية نعرف أن أسرتها الصغيرة قد عاشت فى سايجون فترة طويلة قبل ان ترحل الى فرنسا . وقد غادرت مرجريت فيتنام عام ١٩٤٢ الى باريس وهى فى الثامنة عشرة .. وقد خصصت عن هذه الفترة غالبية أجزاء الرواية . وفى باريس كانت تحمل مســودة روايتها الأولى « المتعجلون » التى نشرتها فى عام ١٩٤٣ . ورغم ان الرواية الجديدة لم تكن قد اتضحت معالمها بعد فى هذه الرواية ـ بدأت بشكل واضح من خلال كلود سيمون عام ١٩٤٥ ـ الا ان التجارب الأولى للكاتبة قد أشارت الى انها سوف تقدم ، فيما بعد ، شيئا مختلفا .

في باريس درست الكاتبة القانون والعلوم السياسية واستمرت في نشر رواياتها .. واذا كانت مرجريت دوراس قد نشرت روايتها الأولى عام ١٩٤٣ . فان أولى مسرحياتها قد نشرته في عام ١٩٥٩ أما أول فيلم أجرته فقد ظهر عام ١٩٦٦ تحت عنوان « الموسيقى » ..

ومن الصعب رصد عالم مرجريت دوراس في مقال واحد . ولذا سنحاول التعرف على عالم الكاتبة من خلال النفاذ الى نقاط محددة في هذا العالم الرحيب ، فأدب الكاتبة يدور حول قطبين دون ان يتناقضا . ويبدا هذا واضحا في رواياتها خاصة الأولى منها . وفي « خزان فوق المحيط الهندي » تتحدث عن أمها دون الاشارة اليها صراحة ، مثلما فعلت في العاشق ، المدرسة التي تخطى بها الزمن . وهي امرأة تتسم بالسذاجة والبساطة ، وتواجه الظروف الصعبة التي تحيطها .. وهي محصورة بين طمـــوح أولادها الذين يريدون العودة الى فرنسا ..وبين أصدقائها الذين يدورون مثل بقرة الساقية بلا هدف محدد .

وفي رواية « مدام دودين » نجـــد أنفسنا أمام شخصين . لا نعرف آسميهما .. يلتقيـــان لأول مرة . هي خادمة تعمل في فندق . وهو بائع جوال يعمل في شوارع المدينة يكافح كل منهما كي يعيش حياته . هي امرأة في حاجة الى رجل . وهو رجل في أمس الحاجة الى امرأة . الى صدر حنون يركن اليه كلمـا شــعر بالقلق . الاثنان يعانيان من عزلة . وأرق . وملل . انهما يمارسان حياتهما باسلوب مشابه . يرددان نفس العبـارات دائما . ولأن الكلام بين الرجل والمرأة . تختلف نبراته . فانهما يتعارفان . يبدأ كل منهما في الحديث عن نفسه . يتبادلان عبارات تافهة يقولها الناس دائما كلما سعى أحد للتعرف بآخر . يدور الحديث طويلا ، بلا معنى ، وربما هناك هدف . هو زيادة الاتصال . فنحن نعيش في عصر البشر فيه كثيرون ولكن الاتصال فيما بينهم ضعيف ، واه .

ويقترب كل منهما من الآخر بعد عدة لقاءات . يدور دائما كلام بينهما . لكن على الكلام ان يصبح نغمة واحدة . وعلى الايقاع أن يتوحد بينهما كى يقتربا أكثر . تقص عليه قصصا من حياتها . يفكر فيها . يحدثها انه يود الارتباط بها . ياله من ارتباط . .

مثل هذه العلاقات هى هم الكاتبة فى أدبها بصفة عامة . واذا كانت قد أوجدت شكلا تقليديا لها فى رواياتها الأولى . فانها فيما بعد تحدثت عن نفس العلاقات من خلال شكل تجريبى جديد . مثلما حولت رواية « **حزان فوق المحيط الهادىء** » الى « **العاشق** » .

الجدير بالذكر ان الرواية الأولى التى بدأ فيها التجريب واضحا هى « خيول تاركينا الصغيرة » .. وفى هذه الروايات اختفى الموضوع وانحسرت الشخصيات .. وضاقت الأماكن بشكل واضح . مثلما حدث فى « هيروشيما حبى » حيث هناك امرأة فرنسية تحب رجلا يابانيا يشهد فى طفولته ما حدث فى مدينة هيروشيما من فظائع عقب القاء القنبلة الذرية .

ومن أشهر رواياتها فى تلك الفترة « **الساعة العاشرة والنصف من امسية صيف** » التى تتناول فيها علاقة مشابهة بين رجل وامرأتين . فهناك فى تلك العاصفة الشديدة أكتشف زوج خيانة امرأته فأطلق عليها الرصاص ، وهرب . أثار هذا الحادث تلك القرية الأسبانية الصغيرة التى وقع بها أكثر مما أثارتها العاصفة التى عطلت حركة المرور . توقفت سيارة بول الذي ترافقه امرأته وابنتها اللتان تجلسان فى الخلف . أما كلير ، صديقة ماريا الزوجة ، فكانت تجلس بجانب بول وفى الخفاء تضغط على يده . حتمت هذه الظروف ان يقضى الأربعة ليلتهم فى فندق . حيث الناس يتحدثون عن جريمة القتل . وفى الساعة العاشرة والنصف ذهب بول الى كلير . ووقفت الزوجة ، من بعيد ، ترقبهما . وفى تلك

اللحظة سمعت صوتا أسفل الشرفة • انه رودريج القاتل • تناديه وتخبره أنها سوف تساعده • تذهب به خارج القرية • تتركه فى كوخ صغير وتخبره أنها ستعود فى الصباح •

وفى الصباح تحدث زوجها عما فعلته ليلة البارحة • يهرع الأربعة الى الكوخ لكن رودريج يكون قد صرع نفسه • انه صورة مشابهة من ماريا • قتلته الخيانة وأدمته وانسالت فوق روحه الدماء ، وعندما تستكمل الأسرة رحلتها الى مدريد تخبر زوجها ان عليهما ان يفترقا • لكن بول لا يوافق •• ويكتشف أثنـاء الحفل الذى يحضرونه معا أن زوجته تضحك كما لم تفعل من قبل • وعقب الحفل تطلب ماريا ان يلعبوا لعبة الاستغماية • وفى هدوء شديد تنسحب • يبحث عنها زوجها • بلا جدوى •

وبدءا من المرحلة التجريبية بدأت الكاتبة فى تجريد شخصياتها من أسمائهم ، والأماكن التى يعيشون فيها • وهم أشخاص ليس لديهم أى شىء بطولى • أنهم يتبادلون الاشارات والكلام دون أن يصلوا الى أهداف محددة • ولا يظهرون أفكارهم ولا مشاعرهم • ويجهلون أو يخفون الأخطار التى تحيق بهم : الانفراد والاعيـاء والجنون وادمان الخمر والجريمة • ولا يتم بينهم أى اتصال حقيقى ولا أى حوار • يبدون كأنهم يلاحقون مناجاة متوازية • ويتكلمون ، ليس للتعبير عن أنفسهم ، من أجل استكشاف حيوات سرية تصبح ملموسة بفضـل حالتهم ذات الوعى النصف • وذلك رغم تفاهة كلماتهم الظاهرة •

والنساء فى هذه الأعمال التى ظهرت فى تلك السنوات يعشن فى عالم من اللامبالاة • ويعين عزلتهن ويقسن اتساع عالمهن الرتيب البارد ، انهن دون هوية ، وتجربتهن هى الوصول الى هوية • مهما

كان الثمن • وهن يضعن أنفسهن فى استيداع كلما ينتظرن الاشارة بأن الشيء قد بدأ •••

ولأنه لا يمكن أن نفصـــل ابداع مرجريت دوراس الروائى عن المسرحى والسينمائى •• فعلينا أن نتناول عطاءها السينمائى خاصة انها التى قامت باخراج كل كلماتها التى أبدعتها • فكتبت السيناريوهات كى يخرجها آخرون فى بادىء الأمر • مثلما فعل الآن رينيه وجول داسان •• ومن قراءة القائمـة الكاملة لأعمـال الكاتبة سوف تراها قد حولت احدى رواياتها الى فيلم • وفى فترة أخرى حولت فيلما من أفلامها الى رواية ••• أو الى مسرحية •• وهكذا تتحرك أضلاع هذا المثلث فى كل الاتجاهات بلا حدود أو ضابط ••

وفى هذه الأعمال تلعب المرأة الدور الرئيسى ، أما الرجل فهو مخلوق ثانوى هامشى • وقد أصبحت النساء بلا وجوه أو هوية أو ملامح • مجهولة المنبع ، غير معروفة المصير • لا تتسم بذكاء أو بسمات آدمية مميزة • تعيش وجودها لحظة بلحظتها • انها أقرب الى الحيوانات الشاردة فى الغـابات • يريد الكل ان ينهش فى بشرتها الناعمة •• وعليها ان تعطى بلا حدود مثلما حدث فى فيلمها « أنشودة هندية » • وهنا نجد أنفسنا أمام امرأتين تسيران فى خط متواز • الأولى امرأة ثرية والأخرى تعانى من املاق شديد • الأولى محبوبة والثانية عاشقة • انهما صورتان لامرأة واحدة نقابلهما فى كل مكان • الأولى تعرف تماما وتعى قضية الوجود • فتهجر الرجل • والثانية لا تعرف ولكنها تعيش بأى ثمن • هناك الصراع والموت والكفاح من أجل الحياة ، والبقاء •

أما « **الحافلة** » فتدور أحداثهـا داخل مقصورة سيارة كبيرة لا يجلس فيها سوى السائق وامرأة داخل عالم مغلق • تتكلم المرأة

والرجل يسمع • وتتصاعد حدة الموقف بين الاثنين من خلال ما يقال وما يسمع وكأنهما في عالم سحرى • شخصيات داخل شخصيات • أو فيلم في أعماق فيلم • ثم يدخل فيلم ثالث داخل الفيلمين • المرأة هنا هي احدى نساء مرجريت اللائى يجدن الحديث حول حكايات متناثرة سمعتها من هنا وهناك • امرأة بلا هوية محددة • تتحدث حول أشياء مجهولة الهوية لا رابط بينهما • انها أقرب الى وساوس المجانين • تشعر نحو السائق بحب هو أيضا مجنون • تتكلم عن السياسة والعنصرية والثروة • يقود وهو يتلذذ بسماع صوتها •• لكن السائق يتنبه الى أنه ليست هناك امرأة في السيارة • انها صوت يهفو اليه من الخارج • لعل صاحبته جالسة بجانبه • ولعلها قادمة اليه من المستقبل • أو لعلها تصعد من حفرة الماضى البعيد • انها تمثل صوت الكاتبة • كأنها تحاول بدورها ، ان تسرى عن السائق ، في رحلته الطويلة المعزولة • وتحدثه عن أشياء عديدة • بعضها لا يعرفها • وأشياء أخرى أيضا •• لا يعرفها !! •

•

وتبدو مرجريت شغوفة بمثل هذا العالم الرائع الذى يخصها وحدها • ليست فيه حدوتة بأى معنى • ولكنه مجموعة من الصور المتلاحقة حول أشياء غير مترابطة • المكان ثابت لكنه لا يصبح مكانا بالمرة ، والزمن مرن والشخصيات التى يتصورها المرء موجودة اذ بها تتلاشى كأطياف تنسحب من فوق بساط الواقع • ففى « السفينة ليل » نرى عالما يحده الحب من طرف • والموت من طرف آخر • أشخاص يجتازون الرحلة في سفينة ليل • لا أسماء لهم أو عوالم محددة • تحدد هويتها صور سريعة أو حوار عابر • أو تعليق طويل • وفى هذه السفينة نرى ثلاثة أشخاص • هم صورة مكررة من الذين تحدث عنهم سارتر في « **الأبواب المغلقة** » : رجل وامرأتان • يدور بينهم حوار غير متتابع وبلا منطق وقد أخرجت الكاتبة هذه الرواية بنفسها لكل من السينما والمسرح •

وعرضت كافة النصوص فى نفس الفترة الزمنيـــة عام ١٩٧٨ ٠
ويقول روبير كانتيه ـ لويوان فى ٢ ابريل ١٩٧٩ ـ « ان السفينة ليل تضم العابرين والقباطنة والغواصين الذين يمثلون جزءا من الوعى ، الذى ينبثق من أعماق الظلمات حيث تسلك طريقا لبحرنا الخاص » ٠

واذا كانت الكاتبة تميل الى استخدام لغة خاصة فى أدبها ٠ فانها تحول كل كلمة الى صورة فى أفلامها وتقول انها تمارس نوعا من القهر والضغط النفسى على مشاهدى أفلامها : « حدثنى شخص يوما أنه قد اتفق أن يعرض أفلامى على مسافة أربعين كيلو مترا من باريس ٠ انها فكرة رائعة ٠ فهكذا نرغب ان تعرض أفلامنا ٠ فأنا أعرف اننى أوجه أعمالى الى ثلاثين ألف شخص ٠ وأنا أعمل من أجلهم ٠ ولن يحرمنى هذا من امتاع الآخرين . وعلى كل فلا يوجد جمهور شعبى فى فرنسا مثلما يحدث فى العالم بأسره ٠ فالكل سوف يفهم ٠ من العمال وحتى المفكرين ٠ لن يوجد طليعيون ، لكن فقط أناس يخلصون لتجاربهم » ٠

« العاشــق » فازت بجائزة الجونكور عام ١٩٨٤

هذا هو بعض عالم مرجريت دوراس · ولم يكن للكاتبة ان تحصل قط بإبداعهــا التجريبي على جائزة جونكور · الا اذا كان أعضاء هذه الأكاديمية قد رأوا في هذه الرواية عملا تقليديا أكثر من أعمالها الأخرى التي كتبتها في السنوات العشرين التي سبقت هذه الرواية · وهذه حقيقة لا يمكن انكارها ·· فنحن أمام موضــوع محدد ، هو علاقة عاطفية عاشتها الكاتبة في مقتبل حياتها · حين كانت تعيش مع أسرتهــا في شرق آسيا ابان الاحتلال الفرنسي لفيتنام · وهي علاقة تخص جلد الكاتبة ومسامها في المقام الأول ·· نابعة من وجدانها الداخلي · تنخر في ذاتها كي تكتبها ·· وقد قامت وهي المرأة العجوز باجترار أحداث هذه العلاقة العابرة بتفاصيل بالغة الدقة · ولنقل انها ليست تجربة عابرة بقدر ما هي تجربة أولى ·· وقد وظفت الكاتبة كل ما لديها من أجل هذه العلاقة حتى علاقاتها الأخرى بمن حولها · بأسرتها وأصدقائها · وزميلاتها في المدرسة ·· كل هذا تم توظيفه من أجل هذا العاشق · وهو عاشق كما ســنرى رقيق الجلد والمسام ·· هش المشاعر ·· سـلبي الاحساس ·· يتعامل كثيرا مع النساء بحكم ثراء أبيه وليس بحكم فحولته ·· وهو رجل بلا اسم مثل كل شخصيات الرواية · فتارة

هو « العاشق » تارة « هو » وثالثة « حبيبي » هو خيـال يمكن تجاوزه وعـدم ملاحظته مثلمـا تقول الحبيبة بعد ان أصـابتها الشيخوخة ..

والمهم فى هذه العلاقة هو الشكل الذى صـاغت به الكاتبة حدوتتها .. فالشكل الروائى غالبا تقايدى .. أو أصبح تقليديا بحكم تكراره فى العديد من الروايات المائلة . ولكن الجديد فى هذا الشكل هو اللغة .. واصرار الكاتبة على استخدام محددات خاصة وخاصـة ما يسمى بالتكرار .. فلو قرأت هـذه الرواية للوهلة الأولى .. ولم يكن لديك أى انطباع عن الكاتبة وتاريخها لقلت ان لغة الكاتبة هى لغة الخواطر التى يدون بها الشباب المبتدئون انطباعاتهم نحو الأشياء من حولهم . وخاصة ما يتعلق بانفعالاتهم الأولى تجاه طرف آخر من جنس آخر .. وفى مثل هذه الكتابات فان التكرار هو السمة الأساسية . التكرار اللفظى . والتكرار فى وصف الحدث بعبارات جديدة . التكرار اللفظى يمثل فى تكرار معنى أو كلمة ذات مدلول خاص أكثر من مرة . اما لترسيخ المعنى أو لاعطاء معنى مغاير لما قصد به عند ذكرها أول مرة .. والكاتبة هنا تجد مشاعرها .. وتتلذذ بهذا التكرار .. ولعلها ظلت تفعل ذلك لمدة ثلاثة وخمسين عاما . هى المسافة بين زمن هذه التجربة وكتابتها بهذا الشكل .. لذا راحت تحفر بكلماتها فوق الورقه . فهى تكرر العبارات التى تنتمى الى هذه الآونة . والى خصوصية هذه العلاقة .. واعتقد أن هذا قد ميز لغة الكاتبة وجعلها تعود الى اللغة التقليدية ـ أو قريبا من ذلك ـ أو المترابطة معا فى جمل وفقرات وفصول وهكذا . وهذا ما جعل أعضاء أكاديمية جونكور يرونها عملا تقليديا فى المقـام الأول ..

ولأن هذه الأحداث ظلت ماثلة فى مخيلة الكاتبة كل هـذه السنوات . فقد أصبح من الصعب معرفة هل هى أحداث من الحاضر

أم من الماضي · ولذا فقد اختلطت الأفعال الزمنية معا · المضارع يتداخل مع الماضي · وامتزجت الأزمنة معا ، في الفعل والحدث ، وأصبحت الكلمات الجامدة والأسماء طيعة للتحرك وسط هـذه الأفعال ·· تنتقل حسب حركة وجدان الكاتبة من عام ١٩٨٤ ابان كتابتها الى السنوات الأولى من الثلاثينات بل حدث ما هو أبعد من ذلك حيث اختلطت الأماكن أيضا ·· فهي تتكلم عن حياتها في باريس وتتصور كأنها لا تزال تتحدث عن سايجون أو شولن والعكس بالعكس ·· وفي فقرة تحدثك عن مكان تنتقل منه الى مكان آخر له نفس الصلة الوجدانية دون ان تمهد الى ذلك ·· فعقلها ينتقل بسرعة بين هذه الأشياء دون ان يستأذنها · ولذا فهي لا ترغب ان تقوم بنفس العملية من الاستئذان لقارئها ··

الأشياء الثابتة الوحيدة هي الانسان ·· والأماكن ·· فهي لا تخلط بين مشاعرها نحو البشر ·· وهي غـير متقلبة في حالة التنقل · فهذه أمها لها دائما نفس السمات وهناك مشاعر تكنها نحوها لا تتغير ، مهما تغير الزمن · وهكذا بالنسبة للأخ الأكبر الذى لم تقل فيه ، أبدا ، كلمة طيبة · بعكس الأخ الأصغر الذى تحبه وكأنه عاشق من نوع خاص ·· وتذكره بمناسبة أو بدونها ·· وتحاول ان تقيم على شرفة وليمة أدبية خاصة ·· كذلك فان علاقتها بالأمكنة ذات مدلول خاص · كالغرفة الصغيرة التي كانت تذهب مع حبيبها الصيني من أجل اجترار رشفات من الحب · وأيضـا العبارة « التي كانت تركبها يوما لتعبر النهر والتقت فوقها لأول مرة بهذا الرجل الثرى صاحب السيارة السوداء الفارهة ·· هذه العبارة هي شخصية رئيسية في الرواية · فالكاتبة دائما تروح تتحدث عنها · ثم تبتعد مسافة زمنية وتعود اليها مرة أخرى ·· فاليها يعود الفضل في اللقاء الأول ·· والعبارة هي النبع الذى تصب منه كل التجربة واليها يعود المرء كي يرتشف ·· رغم انه لم

يحدث سوى لقاء واحد بين الطرفين فوق العبارة الا أنها ذكرت في الرواية عددا من المرات أكثر من غرفة « الجارسونيرة » التي ارتشفا فيها من الحب أحلاه ..

واذا كانت الكاتبة قد انتقلت بسهولة بين الأزمنة . فانها انتقلت بنفس الكيفية بين وجودها الخاص .. فهي تتكلم عن نفسها أحيانا بالضمير الحاضر المتمثل في je . ثم تنتقل لتتكلم عن نفسه الوجود بضمير الغائب وكأنها شخص غريب عنها تماما .. وكأنها كائن تتم ملاحظته تحت العين المجردة لمعرفته وادراك ماله .. أو ما عليه .

كما يهمنا أن نشير الى أن قراءة هذه الرواية مرة واحدة لا تكفي . فكلما قرأها القارىء أكثر من مرة أكتشف المعاني الخلفية فيها .. واستطاع أن يربط أنسجتها التي قد تبدو له مفكوكة في القراءة الأولى .

اذا كان هذا هو بعض من رأينا في هذه الرواية . فيهمنا ان نعرف ماذا كتبت الصحافة الأدبية بصفة خاصة عن « عاشق » مرجريت دورا . يقول بيير بييار في مجلة لوبوان ــ ١٩ نوفمبر ١٩٨٤ ــ ان مرجريت دورا لم تحدثنا أبدا في رواياتها السابقة عن نفسها ولا عن شيء منها . وانها اختارت أن تفعل ذلك وهي في سن السبعين . فأخذت تتأمل الفتاة الصغيرة التي كانت تعيش عاطفة جافة فأرادت ان تمنحها كل شيء من ذاتها . وهذا يكشف لنا بشكل جوهري الدور الملعوب في تكوين عواطفها ، وتأسيس ذاكرتها ، وتزيين عالمها في السنوات الثماني عشرة التي سبقت وصولها الى باريس . هذه السنوات التي عاشتها في الهند الصينية مع أمها مدرسة البيانو والتي قامت فيما بعد بشراء قطعة من الأرض في كمبوديا من أجل زراعتها بالأرز . وقد تحدثت عن هذه التجربة في رواية « خزان فوق المحيط الهادىء » . هذه الأم بالغة الحضور ،

ومحبوبة للغاية . ولكنها ضد كل الأشياء التى يجب التمرد عليها وتمنع ابنتها من الكتابة » .

ويقول جان بيير آميت فى لوبوان ـ ٢٤ سبتمبر ١٩٨٤ ـ ان مرجريت دوراس لا تصنع الكتب . ولكنها تعيش فى الكتاب مثلما يعيش الانسان داخل شعائر دينه وفى كل فقرة من الرواية تحمل شحنة من التجربة ، فهى تلميذة فى مدرسة الدراما ، تعيش نوعا من الارتجاف المرن الذى تبحث عنه بلا جدوى بين الكتب الأخرى التى ظهرت فى الآونة الأخيرة . فها نحن أمام امرأة تحترق وتغنى وتعيش وتموت بين حرارة الذكرى وبرودة الطفولة الضائعة » .

أما الروائى لوسيان بودار فهو من أصول صينية . ويقول حول هذه التجربة « الهند الصينية التى انتمت اليها دائما وأجدها فى نفسى مثلما فعلت . فى هذا الوصف للسيارة السوداء للرجل الصينى فوق العبارة التى تعبر نهر الميكونج ! وصفت كل هذا بعبارات محددة مليئة بالهذيان . وفى نفس الوقت فانها لا تكشف عن شىء . والتزم النص بكل ما هو ممكن حدوثه . فلكل انسان الحق فى التخيل ، ولكن عليه ان يبرهن بشكل طبيعى عن الجو الذى عاشه فى آسيا » .

ويرى كلود روا فى مجلة لونوفيل اوبسرفاتور ـ ٣١ أغسطس ١٩٨٤ ـ أنه يجب ألا نحكى « **العاشق** » سوى أن نفعل مثلما تروى قصيدة شعر . لأن هذه الرواية هى شطر من الحياة . هذه العقدة من السيرة الذاتية ، مثلما يكتب المؤلفون عادة ، قد تم تكوينها على غرار قصيدة . فهل هناك شخص يجرؤ على تلخيص قصيدة شعر ؟ لن يبقى له سوى حفنة من دماء متناثرة وشظايا موضـــوع الحب والصراع . والحب هو المعركة للصغيرة مرجريت من أجل أمها . هذه المجنونة بسايجون . والأخ الأكبر المتشرد والأخ الأصغر الذى

مات فى سن مبكرة ، والعاشق الملياردير الصينى ، والذى يمكن ان يقال انها تطلب ان ينتزعها من عالمها » ٠

هذه هى بعض من ملامح الرواية التى نقدمها اليوم الى القارىء العربى وقد يجدها القارىء قريبة فى شكلها تقليدية فى مضمونها ٠٠ لذلك فان القارىء فى حاجة الى تدريب خاص من أجل قراءة هذا النوع من الروايات ٠ ثم من أجل الاستمتاع بها ٠٠ » ٠

العاشــق

مرجريت دوراس

ذات يوم ، وكنت قد أصبحت امرأة عجوز ، رأيت رجلا فى قاعة عامة ، يسير ناحيتى ، بدا كأنه يعرفنى ، وهو يقول لى : « أعرفك منذ وقت طويل ، يقول جميع الناس انك كنت جميلة وانت شابة . لذا جئت لأخبرك أننى أراك الآن أكثر جمالا مما كنت عليه وأنت شـابة . أحببت وجهك كشـابة صغيرة أقل مما أحب وجهك الآن . انه فاتن » .

أفكر دائما فى هذه الصورة . فأنا الوحيدة التى أراه كذلك ، لذا لم أتكلم عنه أبدا . انه هناك دائما داخل نفس الصمت . يبدو رائعا . انه فى كل الأحوال يحجبنى عن نفسى . رغم أننى أتعرف فيه على نفسى ، فأشعر بالسعادة .

حدث كل شىء بسرعة فى حياتى . فى وقت مبكر . أجل . فسن العاشرة كان وقتا مبكرا . وبين الثامنة عشر والخامسة والعشرين يممت وجهى الى ناحية غير معروفة . شعرت بالشيخوخة فى الثامنة عشر . لم أكن أعرف هل أشبه كل الناس . لم أطرح هذا السؤال أبدا . يبدو أنهم حدثونى عن هذه الدفعة من الزمن التى تطرق عليك بابك بغتة ، وتجتاز سنوات الشباب التى هى أكثر شهرة فى العمر . أما هذه الشيخوخة فهى قبيحة . رأيتها تتسرب الى ملامحى الواحدة تلو الأخرى . وتغير الروابط فيما بينها . فتجعل العيون أكثر شيخوخة . والنظرة أعمق حزنا . والفم أشد خشونة .

وتبدو الأخاديد عميقة فوق الجبهة . وبدلا من أن أخاف رأيتني أستعرض ، باهتمام ، هذه الشيخوخة التي أصابت وجهي . عاملتها كأنها مسلسل لعمل أدبي . كنت أعرف أنني لا أخدع نفسي . وانها سوف تخفف من سرعتها يوما . وستمشي في مجراها الطبيعي . أحس بذلك الناس الذين عرفونني في سن السابعة عشرة وأنا في رحلتي الى فرنسا . كانوا يبدون مندهشين وكأنهم يرون في وجها جديدا . وبعد عامين . وعندما بلغت التاسعة عشرة كنت لا أزال أحتفظ بهذا الوجه الجديد . انه وجهي . أصابته الشيخوخة أكثر بكل تأكيد . ولكن بنسبة أقل مما يجب . انه وجه مليء بالأخاديد اليابسة والعميقة . والبشرة المتهدلة . لم يكن قد أصابه الارهاق مثل بعض الوجوه ذوات البشرة الناعمة . لا يزال يحتفظ بنفس خطوطه العامة ولكن مكوناته متهدلة . أجل كان وجهي متهدلا .

كما أخبرتكم ، فأنا في الخامسة عشر والنصف .

أقف فوق عبارة خشبية على نهر الميكونج .

وتمتد أمامي المناظر طيلة عبور النهر .

عمري خمسة عشر عاما ونصف . لا شيء معقول في هذا البلد . فنحن نعيش في فصل واحد حار ، طيلة العام ، له نفس الوتيرة . نحن في منطقة واسعة شديدة الحرارة . فلا ربيع هناك ولا أي شيء جديد .

أقيم في بنسيون حكومي في مدينة سايجون ، أنام وآكل هناك . من هذا المكان . أذهب الى مدرستي البعيدة . الليسيه الفرنسية . تعمل أمي مدرسة . وتريد لابنتها الصغيرة ان تلتحق بالمدرسة الثانوية . « المدرسة الثانوية ضرورية بالنسبة لك » . وما يرضيها أنني لست صغرى أبنائها . الالتحاق بالمدرسة الثانوية أولا . ثم

الحصول على شهادة فى علم الرياضة • سمعتها تكرر هذا الكلام مرارا منذ سنوات الدراسة الأولى • لم أتخيل أبدا أنه يمكننى الافلات من الحصول على شهادة فى علم الرياضة ، كنت سعيدة أن أجعلها تأمل • أرى أمى تعمل كل يوم من أجل مستقبل أبنائها ومستقبلها • لم تكن هكذا من قبل • تتصرف بكبرياء من أجل مصلحة أولادها كأنها صنعتهم من رجال آخرين • مستقبل بعيد جدا • يملأون فيه وظائفهم • ويدفعون الزمن أمامهم • أتذكر دروس المحاسبة لأخى الصغير • فى المدرسة الدولية • فى كل سنوات الدراسة وعلى كافة المستويات • يجب أن يبلغ الهدف كما تردد أمى • يستغرق هذا الأمر ثلاثة أيام ، أبدا • بل أربعة ، أبدا ، أبدا • سرعان ما انتبذ المدرسة الدولية عندما غير وظيفته • وقرر البدء من جديد • انتظرت أمى عشر سنوات ، لكن شيئا لم يحدث • أصبح الأخ الأصغر محاسبا صغيرا فى سايجون • ولانه لا يوجد نظير لمدرسة فيوليه فى المستعمرة • فاننا مدانون بذلك لرحيل أخى الأصغر الى فرنسا • بقى فى فرنسا بضع سنوات من أجل الدراسة فى مدرسة فيوليه • لكنه لم يفعل ذلك • لم تود أمى أن تنخدع • لم يكن أمامها خيار • عليها ان تفصل هذا الولد عن ولديها الآخرين • فمنعت أى شخص من الأسرة عن الرحيل طوال سنوات • وفى غياب أمى قدمت تنازلا • مغامرة مرعبة • خاصة بالنسبة لنا نحن الأطفال الذين كان علينا البقاء • انها أقل رعبا حيث لا تتضمن سوى حكايات عن سفاح الأطفال فى الليل • وحكايات عن ليل الصيادين •

قيل لى دوما ان حرارة الشمس كانت لافحة أثناء سنوات الطفولة • لكننى لم أصدق ذلك • قيل لى أيضا ان ذلك هو انعكاس للمأساة التى يسبح فيها الأطفال • لكن أبدا ليست الأمور على هذه الشاكلة • فالأطفال يشيخون من الجوع القارص • أجل لكن نحن ، لسنا بجوعى فنحن من الأطفال البيض • ولأن لدينا حياء ، كنا نبيع

أثاث بيتنا لكننا لم نجع . كان لدينا خادم وطعام ، نأكل أحيانا ، وهذا واقع ، طعاما من النفايا والطيور المائية والتماسيح الصغيرة . الخادم هو الذى يطهى هذه النفايا ويقوم بالخدمة علينـــا ، وفى امكاننا أن نرفضها . كنا نتمتع بهذا الامتياز . وان فى قدرتنـا العزوف عن الطعام . لا . شىء ما كان يحـــدث عنـدما كنت فى الثامنة عشرة مما جعل الوجه يتشكل على هذا النحو . أخاف من نفسى ، ومن الله . وعندما ينبلج النهار أحس بخوف أقل فيبدو الموت أقل مهابة . لكنه لم يبرح دارنا . تنتابنى الرغبة فى أن أقتل أخى . كم وددت أن أقتله . أشـــعر أكثر من مرة أن لى الحق فى قتله . مرة واحدة أراه يموت . انه يشكل كل عواطف أمى . هذا الولد قدرى فيه أن أمى أحبته بشدة ، وبشكل يسىء الينا . مما آلم أخى الأصغر . لقد صدم أيضا ذلك الأخ الصغير . طفلى أنا ، أحس الأخ الأكبر طوال حياته أنه فوق أقرانه . وأنه يعيش فى غلالة سوداء طيلة النهار . وان له قانونه الانسانى . صنع منـه نوعا آدميا . يستمد منه قانونا حيوانيا . وفى كل لحظة ، وفى كل يوم من حياة هذا الأخ الصغير يتشكل الخوف . خوف تسرب يوما الى قلبه فأماته .

كتبت الكثير عن هؤلاء الناس من أسرتى . فعلت ذلك وهم لا يزالون على قيد الحياة . أمى واخوتى ، كتبت عنهم وعن أشـياء عديدة تخصهم . لكن كل هذا لم يصل اليهم .

لم تحدث قصة حياتى يوما ما . وكأنها شىء لم يوجد . وليس لها مركز ولا درب . ولا خط . هناك أماكن فسيحة تصورنا أن بها شخصا ما . لكننا اكتشفنا ان أحدا ليس بها . لكن هناك جزءا بسيطا من شبابى كتبت عنه الكثير . أردت أن أتكلم وأن ألح أن أتحدث عن عبيـــور النهر بشكل خاص . وان ما فعلته هناك يختلف . أو لعله يتشابه . ففيما قبل . كنت كثيرة الحديث عن هذه الفترات الجلية . كما تكلمت عن فترات أخرى غامضة . عن

سنوات الشباب وبعض الحمية التى أبديناها حول بعض الأمور. وحول بعض المشاعر . وبعض الأحداث : بدأت فى الكتابة عن هذا العالم الذى صنع منى مخلوقا قويا فيما يتعلق بمسألة الأخلاق . لذا فالكتابة من أجلهم شىء مميت . تبدو الكتابة الآن كأنها ليست بذات أهمية مطلقا . أحس بهذا أحيانا . وأنه فى لحظة ما فانها ليست بذات أهمية . حين تختلط الأشياء وتذهب أدراج الرياح . الكتابة ليست شيئا ، سوى لحظة بلا جدوى . فى كل مرة تختلط الأشياء فى شىء واحد ذى جوهر غير مميز ، ليست الكتابة سوى درب من الاعلان . لم أؤمن قط بهذا الرأى بل أرى الحقول مفتوحة . وان الجدران لم تعد موجودة . وأننا لا نمارس الكتابة سوى لنختفى وراءها . ثم نقرأها . وان قراءتها ليست سوى شىء أكثر وقارا . لكننى لم أفكر فى هذا من قبل .

الآن ، أرى نفسى فى مقتبل الشباب . فى الثامنة عشرة ، فى الخامسة عشرة . صاحبة وجه قدرى حصلت عليه ، بفضل الكحول ، فى مرحلة وسطى من حياتى . لقد قام الكحول بالمهمة التى لم تستطع السماء أن تفعلها . فى امكانه أن يقتلنى . يقتل هذا الوجه الثمل . جاءنى قبل الكحول . وجاء الكحول ليؤكده . وتماسكت فى مكانى . عهدت فيه وجها مثل بقية الوجوه الممتلئة بهجة ولم أكن أعرف البهجة بعد . هذا الوجه الذى يرى نفسه مليئا بالقوة . حتى أمى كان يجب أن تراها بهذه الصورة . وكذلك أخوتى بدا كل شىء بهذه الطريقة بالنسبة لى . فالوجه الشفاف منهـوك . والعيون تتطلع الى الأمام وكأنها مليئة بالتجربة .

عبرت النهر وأنا فى الخامسة عشرة والنصف ، عندما عدت الى سايجون ، أحسست أننى فى رحلة خاصـة وأنا أقل السيارة ؛ ركبت السيارة فى الصباح متوجهة الى سادك حيث تدير أمى مدرسة البنات . لم أكن أعرف أكثر من أن الأجازات الدراسية قد انتهت .

ذهبت لقضائها في منزل أمي الوظيفي الصغير · في هذا اليوم عدت الى البنسيون في سايجون · أما سيارة الأهالى فقد غادرت موقف السيارات في منطقة سادك وكالعادة اصطحبتني أمي وعهدت بي الى السائق · مثلما تعهد بي دائما الى سائقي هـــذه السيارات · بسايجون ، تفاديا للحوادث ، وخطر الحريق والاغتصاب وهجوم قطاع الطرق · أو لعطل مفاجيء في العبارة · وكالعـــادة يأخذني السائق بالقرب من مقعده في مقدمة السيارة · في الأماكن المخصصة للمسافرين البيض ·

وأثناء رحلة السفر تكون الصورة مبهمة · والصورة يجب ان تكون ماثلة بشكل عام · كان من الواجب ان تلتقط لى صورة وأنا في هذا الوضع · هنا أو تحت أى ظروف أخرى · لكن هذا لم يحدث · فالتقاط صور في هذه المناسبات أمر بالغ الرقة · لكن ، من يمكنه التفكير في هذا ؟ لم نكن نستطيع أن نلتقط صورة الا اذا أمكن الأخذ في الاعتبار أهمية هذا الحدث في حياتي · عبور النهر · انه منظر ماثل في الذاكرة دوما · رغم أننا كنا نجهل أهميته في الوجود ، فالله وحده يعلم · لذا فهذه الصورة لا يمكن أن تكون صورة أخرى قط · لقد تم نسيانها فترة طويلة ، ولم نعد في حاجة الى انتزاعها أو التقاطها من الذاكرة بشكل نهائي · لكنها بالنسبة للمؤلف تصبح بذات أهمية لما تمثله ·

حدث هذا أثناء عبور نهر الميكونج فوق العبارة التي تعبر بين مدينة فنلونج وسادك ، قريبا من التل الكبير المليء بالطين ، وحقول الأرز الجنوبية الواقعة في وديان كوشين الصينية بوادى الطيور ·

نزلت من السيارة · وسرت عبر شريط ضيق وأنا أتطلع الى النهر · تقول لى أمي أحيانا انني لن أرى النهر أبدا ، في حياتي ، أكثر جمالا من منظره هذا · ولا أكثر اتساعا مما هو عليه في تلك اللحظة ، ولا أكثر توحشا · هذه الأراضي الماثلة التي تختفي داخل

تجويف المحيط . فى المسطحات على مرمى البصر . تتحرك هذه الأنهار بسرعة وتصب كأن الأراضى معلقة فيها .

أنزل دائما من السيارة عندما تصل العبارة ، يكون الليل قد حل ، فأصاب بالخوف . الخوف من الأسلاك الممتدة التى تجذبنا فى اتجاه البحر . فى تيار مخيف وكأننى أتطلع الى اللحظة الأخيرة من حياتى . التيار بالغ العنف . يشد كل شىء اليه ، حتى الحجارة والكاتدرائية والمدينة . وكأن هناك عاصفة تهب من أعماق مياه النهر . فتجعل الرياح تهب بشدة .

أرتدى ثوبا من الحرير الطبيعى . قديما وشفافا . كان فيما قبل ثوب أمى . لم تعد ترتديه لأنه بالغ الشفافية بالنسبة لها فأعطته لى . ثوب بلا أكمام . يكشف عن جزء من الصدر . وهو داكن . من الحرير الطبيعى المستعمل . ثوب كثيرا ما أذكره يجعلنى جميلة . فأضع حزاما من الجلد على وسطى . لعله حزام أحد أشقائى . لا أذكر الأحذية التى كنت أرتديها فى تلك السنوات . لكننى أذكر فقط بعض الأثواب . ففى أغلب الوقت كنت أمشى بصندل من الكتان . اننى أتكلم عن المرحلة التى سبقت زمن المدرسة فى سايجون . بدءا من هنا ، على وجه التأكيد ، بدأت فى ارتداء الأحذية . وفى هذا اليوم ، كان يجب أن أرتدى الحذاء الشهير ذا الكعب العالى والطرف المدبب الذهبى . لا أرى شيئا آخر سوى أننى أستطيع أن أرتديه فى ذلك اليوم . اذن فقد ارتديته كبقايا للتصفية اشترته لى أمى . ارتديت هذا الطرف الذهبى كى أذهب الى اليسيه . ذهبت الى المدرسة بحذاء السهرة المرصع . بحبات الماس الصناعى . حسب رغبتى . لم أحتمل نفسى أبدا بهذا الزوج من الأحذية وما زلت ، حتى الآن ، أجد نفسى على هذه الشاكلة . هذه الكعوب العالية هى أول ما ارتديت فى حياتى ، انها جميلة . وهى تغلب

كافة الأحذية التى ارتديتها فيما قبل • سواء للجرى أو للعب : مسطحة ، من التيل الأبيض •

ليست الأحذية ، فقط ، هى التى تصنع ما هو غريب ، وغير مألوف • ففى هذا اليوم • كنت أرتدى ملابس فتاة صغيرة • كل ما ارتديته فى هذا اليوم قبعة رجل ذى قمة مسطحة • قبعة من اللباد المرن لها لون الخشب الوردى ، وعليها شريط أسود طويل •

تمثل الغموض هذه الصورة من خلال هذه القبعة •

لقد نسيت كل ما حدث لى ، لا أرى لماذا أعطتنى اياها • أعتقد أن أمى قد اشترتها لى وبناء على طلبى ، كى تؤكد أنها بقايا التصفيات • كيف يمكن أن أشرح هذه الحالة الشرائية ؟ فلا توجد امرأة ، أو أى بنت ، يمكن ان ترتدى مثل هذه القبعة اللبادية الرجولية فى هذه المستعمرة فى تلك الآونة • حتى المرأة الوضيعة • هذا ما كان يجب أن يحدث • كل ما فعلته بهذه القبعة ، اننى ضحكت أمام مرآة البائع وأنا أرى نفسى مرتدية قبعة رجل • أبدو كامرأة نحيفة • لقد تحولت هذه الطفلة الى شىء آخر • أشبه بهدية من السماء وقحة وقدرية •أصبحت ، رغم كل شىء ، أمثل اختيارا معاكسا لكل هذا • فكل ما أردته فجأة هو اختيار الفكرة • رأيت نفسى فجأة امرأة أخرى • كأن امرأة أخرى ترانى من الخارج • تضع كل شىء فى اعتبارها • وتضع فى هذا الاعتبار كافة الأنظار الموجودة داخل حركة المدينة ، والطرق • أخذت القبعة ولم أنفصل عنها لحظة • لقد نلت بهذه القبعة كلّ ما يجعلنى لها وحدى • لذا لن أتركها أبدا • أما الحذاء فعليه ان يتلائم معه •• يبدو متناسبا مع القبعة مثلما تتلائم القبعة مع الجسد النحيف ، التى بدت كأنها مصنوعة من أجلى • وأننى لن أتركها سوف أذهب بهذا الحذاء الى

كل مكان • وأخرج بهذه القبعة فى كل الأوقات • وفى كل المناسبات • وسأنزل بها الى المدينة •

عثرت على صورة فوتوغرافية لابنى وهو فى سن العشرين • انه فى كاليفورنيا مع صديقتيه اريكا واليزابيث لينارد • يبدو بالغ النحافة • يقال انه أصبح أبيض فى أوغندا • رأيته يبتسم فى كبرياء ويبدو عليه بعض السخرية • أراد أن يظهر فى الصورة كشاب متشرد • أنه معجب بنفسه هكذا • فى هذه الهيئة المزدرية • أصبح نحيفا بشكل ملفت للنظر • أكثر نحافة فى الصورة مما كانت عليه فتاة العبارة الصغيرة •

هى التى اشترت قبعة وردية ذات حافة مسطحة وشريط أسود عريض • هذه المرأة التى تظهر فى بعض « التصاوير » أنها أمى • عرفتها أفضل فى بعض الصور الحديثة • فى فناء منزل يطل على بحيرة هانوى الصغيرة • كنا معا • هى ونحن : أطفالها • كنت فى الرابعة • أما أمى فتقف فى منتصف الصورة • أدركت جيدا أنها تعانى من ألم • لذا فهى لا تبتسم • وكأنها تنتظر ان يتم التقاط الصورة على وجه السرعة • فى ملامحها شحوب وملابسها غير مهندمة • وعلى عينيها نظرة ناعسة ، أعرف أن الجو كان حارا وأنها كانت مريضة ، وتحس بالملل • لكننا بهذا الاسلوب الذى ارتدينا به ملابسنا ، نحن أبناءها ، نبدو أشبه بالمساكين • أما أمى فتبدو وكأنها سوف تقع • فى تلك الآزنة التى يعود اليها زمن الصورة • كانت هناك دلائل التبشير • انها أمور تحدث فجأة ، فلا يمكن أن نغتسل أو أن نرتدى ملابسنا • وأحيانا لا نتناول غداءنا • هذا الاحباط الحياتى الكبير ، كانت أمى تجتازه يوميا • وفى بعض الأحيان يستمر • أو يختفى مع حلول الليل • كنت محظوظة ان تكون لى أم أشد بأسا من اليأس • رغم كل مباهج الحياة • فهى مليئة ، أحيانا ، بالحيوية ، ولم يحدث أن شردت يوما • كل ما كنت

أجهله هو تلك الأمور المتعمدة التى تمارسها يوميا • وتتركنا على هذه الشاكلة ، مثل هذه المرة • بعد أن ارتكبت غلطة شنعاء • فهذا المنزل الذى شيدته والموجود فى الصورة ، لم تكن أمى فى حاجة اليه • خاصة عندما كان أبى ملازما الفراش • وعلى وشك الموت • طوال عدة أشهر • ربما لأنها علمت أنه مصاب بهذا المرض الذى سوف يقضى عليه • لقد توافقت التواريخ • وكنت أجهل كل هذا مثلها تماما • تلك هى طبيعة الظروف التى كانت تمر بها • والتى سببت كل هذا الاحباط الذى تراءى أمامها • هل كان موت أبى ماثلا لهـا • هل حدث فى نفس اليوم ؟ هل تشككت فى هـذه الزيجة ؟ وهذا الزوج ؟ وهؤلاء الأطفال ؟ أو ، بصفة عامة ، فى كل هذه الأشياء ؟

فى كل يوم ، أحس كما أن هذا مؤلم • ففى لحظة ما تحس بهذا اليأس البادى على ملامحها • وأن المستحيل يتقدم خطاها • تلجأ الى النوم أحيانا • أو قد لا تفعل شيئا • وفى بعض الأحيان تتصرف بأسلوب معاكس فتذهب لعمل المشتريات • أو تغير أماكن الأثاث كحالة مزاجية • أحيانا تحس بالارهاق • وفى أحيانا أخرى تحس أنها ملكة وعلى الجميع ان يطلب ودها • ففى هذا المنزل الذى يطل على البحيرة • مات أبى بدون جرم ارتكبه • وفيه أيضا قبعة ذات حافة مسطحة • ترتديهـا الصغيرة بالحاح وهـذا الحذاء المدبب الطرف • أو على هذه الشاكلة • حيث لا شىء سوى النوم أو الموت •

لم أر قط الفيلم الذى يرتدى فيه الجنود مثل هذه القبعات ذوات الحافة المسطحة والجدائل المسترسلة على أجسادهم • فى تلك الآونة لم أكن أطلق جدائلى مثلمـا أفعل عادة • اعتدت أن أطلق ضفيرتين طويلتين ينزلان فوق جسدى مثل ممثلات السينما اللائى لم أرهن • كانت ضفائر طفلة • لكن بعد ان ركبت العبارة • لم أعد أطلق لشعرى العنان • وآثرت أن أسحب شعرى وأقصه الى الوراء •

اردته أن يكون مسطحا . وان يبدو قصيرا . أمشطه كل مساء
وأصنع دوائر قبل أنام مثلما علمتنى أمى . كان شعرى ثقيلا .
مرنا . رقيقا . وكأنه كتلة نحاسية تكاد أن تطال خاصرتى . سمعت
دوما اننى كنت صاحبة أجمل شعر وهذا يعنى اننى لست جميلة .
لذا قصصت هذا الشعر المثير للالتفات وأنا فى الثالثة والعشرين
بباريس . بعد خمس سنوات من ابتعادى عن أمى قلت « قصه »
فقصه كله بضربة مقص واحدة بهدف تشذيبه . بدا المقص باردا
وهو يلمس رقبتى . سقط فوق الأرض . سألنى ان كنت أريده .
وأن يصنع لى منه باقة . أجبت بالرفض ، فبعد هذا لن يقال اننى
صاحبة أجمل شعر . أريدهم الا يرددوا هذا فيما بعد . مثلما كان
يحدث قبلا . قبل أن أقصه . سوف يقولون بعد ذلك : انها ذات
عيون جميلة . وابتسامة عذبة .

أنظر الى نفسي فوق العبارة . وأنا في الخامسة عشرة والنصف .
أبدو شاحبة . فأضع من مسحوق التوكالون على وجنتى . أحاول
أن أخفى البقع الحمراء التى تحت عينى . وأضع فوق مسحوق
التوكالون مساحيق لها لون الجلد . تحمل اسم هوبيجان . انه
نفس المسحوق الذى كانت تضعه أمى قبل أن تذهب الى الادارة العامة
فى كل مساء . فى هذا اليوم كان معى أحمر شفاه داكن أشبه
بالكرز . لم أعرف من أين أحضرته . ربما ان هيلين لا جونيل قد
سرقته لى من أمها . لا أعرف على وجه التحديد لم أكن أمتلك عطورا .
أما أمى فكانت لديها كولونيا وصابون بالموليف .

فوق العبارة ، وبجوار السور ، وقفت سيارة ليموزين سوداء ،
يرتدى سائقها سترة من القطن الأبيض . أشبه بأجمل سيارة
شاهدتها فى كتبى . من طراز موريس ليون ــ بولليه . ذات مخطاف
وأشبه بسيارة السفارة الفرنسية اللانشا السوداء فى مدينة كلكتا .

في هذه السيارات ، توجد ستائر زجاجية تفصل السائقين عن السادة . وهنا أيضا مقاعد هزازة . وتبدو السيارة كبيرة أشبه بغرفة .

في السيارة الليموزين ، يجلس رجل بالغ الأناقة . ينظر الى . أنه ليس أبيض البشرة . يرتدى ملابسه على الطريقة الأوربية . بدلة من الحرير الهندى الفاتح أشبه ببدل موظفى بنك سايجون . ينظر الى . اعتدت على نظرات الناس لى . مثلما ينظرون الى نساء المستعمرة من البيض . خاصة البنات الصغيرات من البيض اللائى بلغن الثانية عشرة . فمنذ ثلاث سنوات والبيض ، أيضا ، ينظرون الى في الشوارع . ويسألنى أصدقاء أمى ، بلطف ، أن أذهب الى منازلهم لتناول مشروب في الساعات التى يلعب فيهـا زوجاتهن التنس بالنادى الرياضى .

أستطيع أن أخدع نفسى ، وأعتقد أننى جميلة مثل كل النساء الجميلات ، مثل النساء اللائى يجذبن الأنظار . فهم ينظرون بالفعل الى . لكننى أعرف أن هذه مسألة لا تتعلق بالجمال وانما بشيء آخر . مثلا . أجمل بشيء آخر . فكرة مثلا ، فكل ما أريد أن أظهر به أراهن عليه . وان أكون جميلة أمر مطلوب . لذا سأكون جميلة . وحلوة . حلوة ، مثلا ، في عيون الأسرة . في عيون الأسرة وحدها . هذا كل ما يريدونه منى . وما يمكن أن أغدوه ويصدقونه . يصدقون أننى ساحره كذلك . وبمجرد أن أصدق هذا . فسوف أحدث تأثيرى لمن يرانى . ويرغبه أن أكون متفقة مع ذوقه . وأعرف ذلك أيضا . وينبغى أن أكون فاتنة رغم اصابتى بالهلع من وفاة أخى . ففى الموت هناك شريك واحد هو أمى . وأردد كلمة « فاتنة » وكأننى أنطلق بكلمة جامدة حول الأطفال .

لقد تم تحذيرى من عدة أشياء . أعرف أن هذه ليست الملابس المناسبة التى ترتديها النساء الأكثر أو الأقل جمالا . دون الأخذ

في الاعتبار ما يتمتعن به من فتنة أو ثمن المساحيق أو أسعار الحلي .
أعرف ان هناك بعدا آخر للمشكلة . لكنني لا أعلم مكانها بالتحديد .
أعرف انها ليست موجودة هناك حيث تؤمن بها النساء . فانظر
الى النساء في شوارع سايجون . وفي مكاتب البورصة . وأرى
نساء بالغات الجمال . وذوات بشرة ناصعة البياض . يولين
بشرتهن عناية خاصة . وبالذات في مكاتب البورصة . لا يعملن
شيئا سوى الاحتفاظ بأنفسهن جميلات ، يحافظن على أنفسهن من
أجل العشاق والأجازات في أوروبا خاصة ايطاليا . في اجازات
العمل الطويلة . التي تستغرق ستة أشهر كل ثلاث سنوات . هناك
يمكنهن الحديث عما يدور هنا . عن هذا الكيان الاستعماري البالغ
الخصوصية . عن هؤلاء الناس ، وصبية المحلات ، وكم هو رائع
الحديث عن الخضرة والحفلات والفيللات البيضاء الكبيرة ، التي
يسكنها الموظفون العامين في المكاتب البعيدة . ترتدي النساء
ملابسهن . بلا سبب . تتبادلن النظرات في ظلال هذه الفيللات .
يتبادلن النظرات حتى وقت متأخر من الليل . ويعتقدن أنهن يعشن
وقائع رواية . دواليبهن الكبيرة مليئة بالفساتين ولا يعرفن ماذا
يفعلن بها . قمن بجمعها عبر الأيام . طيلة فترة الانتظار . أصاب
الجنون بعضهن . أما البعض الآخر فقد وهبن أنفسهن لخادم شاب
عليه التزام الصمت . وخوفا ان تطالهن كلمة . ففي بعض الأحيان
نسمع صوت صفعة من احداهن لخادمتها . ماتت بعضهن بحسرتهن .

كثيرا ما بدا لي هذا الانتقاد النسائي لبعضهن البعض ولأنفسهن
خطيئة كبرى .. فأنا لم أكن أمتلك شيئا يوحي بالرغبة . فقد كن
يبحثن عن شيء يثيرهن ، يفهمن ذلك من النظرة الأولى . لذا فهن
يتمتعن بذكاء خارق لماح . كنت أعرف كل هذا قبل ان أصل الى
سن الرشد .

كانت هيلين لاجونيل هي الفتاة الوحيدة التي تجاوزت قانون الخطأ · ببساطة لأنها تأخرت في طفولتها ·

ظللت لا أمتلك فستانا زمنا طويلا · فقد صنعت فساتيني من ملابس أمي القديمة التي كانت تطرز فيما شبه الحقائب · انها الملابس التي كانت تصنعها أمي بواسطة دوو · المرأة التي لم تكن تترك أمي قط حتى لو عادت الى فرنسا · تعمل في مكتب توظيف سادك حتى ولو لم يدفعوا لها · تربت دوو بين الراهبات وكانت تطرز وتصنع ثنايا الملابس ، وتطرزها بطريقة انقرضت منذ قرون بابرة رفيعة كالشعر · لذا جعلتها أمي تطرز الملاءات · ولأنها تصنع الثنايا فقد جعلتها أمي تصنع ثنايا ملابسها · فساتين واسعة · أرتديها مثل الحقائب فتجعلني أبدو كطفلة · طبقتين من الثنايا في المقدمة · وياقة على طراز كلودين · أما الجونلة فمحسورة عند الخصر · والفساتين مطرزة بفتحات كي تبدو وكأنها يدوية · ارتدى هذه الفساتين الأشبه بالحقائب وحولها أحزمة تضبطها · فتصبح شيئا أشبه بالأبدية ·

فتاة في الخامسة عشر عاما والنصف · رقيقة الجسم أو لعلها هزيلة · ذات صدر مسطح كالأطفال · باهت كالورد · كأنه أحمر شاحب ، ثم هذا الرداء الذي يمكن أن يثير السخرية فلا يضحك أحدا · أرى كل هذا ماثلا · كل شيء هناك ولا شيء موجود هناك · أراه في العيون · كل شيء موجود في العيون · أريد أن أكتب · أخبرت أمي بهذا · انني أ بد أن أكتب · في المرة الأولى لم ترد · ثم سألتني : ماذا ستكتبين ؟ أجبت : كتب ، روايات ·· قالت بجدية : بعد أن تحصلي على شهادة الرياضيات ستكتبين ما تشائين · فهذا أمر يهمني كثيرا · انها ضد الكتابة · وليس في هذا ما يشين ، وكأن الكتابة ليست بمهنة · بل حالة من المزاح · قالت لي فيما بعد : هذه أفكار أطفال ·

فتاة صغيرة ، ذات قبعة من اللباد . تقف وحدها فوق جسر العبارة وقد انعكس الضوء على صفحة النهر . تستند على الدرابزين، وتبدو قبعة الرجل الملون وردية في كل حالاتها . انه اللون الوحيد الذى تعكسه الشمس التى تحرق النهر . الشمس الحارة والشاطئان المسطحان . يبدو الشاطىء وكأنه يلاحق الأفق . ويجرى النهر بصمت . دون ان يثير صوتا . كأنه الدم في الجسم . فلا رياح على صفحة المياه أما موتور العبارة ، فهو الذى يسبب الضجة الوحيدة في المكان . صوت التروس الملتصقة للموتور . ومن وقت لآخر تهب نسمة خفيفة . ونسمع أصوات ضجة . ونباح كلاب . تأتى من كل مكان ... من وراء الضباع . ومن كافة القرى . عرفت الصغيرة العبور منذ أن كانت طفلة . فهى تذهب دوما الى أرض كمبوديا . وتردد الصغيرة : اننى بخير . وحول العبارة يتحرك النهر. على مستوى الضفاف . وتتموج مياهه عابرة المياه الراكدة فوق حقول الأرز . فلا تختلط بها أبدا . تزيح أمامها كل ما يمكنها ان تقابله في نهر التونلساب الواقع في غابات كمبوديا . تزيح كل ما يعترض طريقها من قش وأخشاب ، ونفايا وحرائق مطفأة ، وطيور ميتة ، وكلاب نافقة . ونسور ، وثيران وغرقى . وجثث الموتى ، وقطع اللحم ، وجزر من أزهار الياقوت ومياه جيلاتينية . ويزحف كل هذا ناحية المحيط الهادىء . لا شيء لديه وقت للجرى . فكل الأشياء تحملها عواصف الأعماق الهوجاء من تيار النهر الداخلى ويبقى كل شيء معلقا فوق السطح بقوة النهر .

أخبرتها أننى أرغب في الكتابة قبل أى شيء آخر . لا شيء سوى الكتابة . بدت غيورة . ولم ترد . وبنظرة دائرية سريعة هزت كتفها بلا مبالاة ، شيء لا ينسى . كنت أول من رحل . وكان على أن أنتظر بضع سنوات حتى تفتقدنى . حتى تفقد هذه

الطفلة • أما الأولاد فلا خوف عليهم • لكن هذه الفتاة • سوف تعرف يوما ، وسترحل وسيمكنها التحرر • أولا فى فرنسا •

قال لها مدير المدرسة الثانوية : ابنتك يا سيدتى . هى الأولى فى فرنسا ، لم تعلق أمى بشىء • لم تحس بالسعادة لأن أبناءها هم أول من رحلوا الى فرنسا • وتسأل أمى حبيبتى : والرياضيات . فيكون الرد : لم يحن الوقت بعد • سوف يأتى الوقت • فتسأل أمى : متى سيحدث ؟ فيكون الجواب : عندما تريد ذلك يا سيدتى •

وتقف أمى بقيافتها المضحكة اللامعقولة • وبجوربها القطنى الذى غزلته دوو ، تعتقد أن على السيدات فى مناخ مدار السرطان أن يرتدين الجوارب خاصة بالنسبة للسيدة مديرة المدرسة مثلها • أما فساتينها فقد بدت مثيرة للسخرية وقد بدت غير مهندمة • فما تزال دوو هى التى تطرزها • أتت بها مباشرة من مزرعتها التى يسكنها أبناء عمومتها • فتظل تستخدم هذه الملابس الى أن تهترىء تماما • تعتقد أنها يجب ان تستفيد من أحذيتها ، أحذيتها التى بليت ، فتسير بها فى كل مكان وخلفها كلب صغير • وقد سحبت شعرها وضمته فى جديلة على الطراز الصينى • مما آثار فى أنفسنا الخجل • يظهر هذا الخجل فى الشارع الذى أمام المدرسة • وعندما وصلت المدرسة فى سيارة طراز ب ١٢ تطلع اليها كل الناس • لكنها لم تلحظ شيئا • وكأنها عزلت نفسها عنهم • حاولت أن أثير انتباهها • فنظرت الى وقالت : ربما لأنك تسحبين شعرك ليل نهار • بطريقة جامدة • وهذا شىء لا يجب حدوثه • يجب ان نخرج من هذا المكان الذى نحن فيه ••

وعندما وصلت وأمى الى هـذا الحد من الحديث • أحسست باليأس • واكتشفت اننى أرتدى قبعة للرجال ورأت حذائى المدبب فسألتنى عنهما • فأجبت لا شىء تطلعت الى • وبدا وكأن هـذا

يعجبها • فابتسمت وقالت انه لا بأس بهذه الأشياء وانها لن تجعلنى أبدو سيئة وان الأمر سوف يتغير • لم تسألنى هل اشتريتها • فهى تعرف مصدرها • وتعرف أنها صالحة ، صالحة لعدة مرات • لذا فهى لا يمكن ان تكون ضدنا • قلت لها : على كل ، فهى ليست غالية • فلا عليك • سألت عن مكان ابتياعها • فقلت : اشتريتها من شارع كانيتا • فى تصفية للتصفيات • ونظرت الى بمودة • لعلها رأت ان هذا دليل طيب على صحة خيال طفلة صغيرة • تتصرف كما تشاء بهذا الاسلوب • ليس هذا فقط • بل باركت هـــذا التهريج ، وهذه المخالفة ، وتصرفت كأرملة ترتدى الألوان الرمادية• وكأنهاتترك فترة الحداد ، وتبدو هذه المخالفة وكأنها تعجبها •

يبدو الفقر أيضا فى قبعة الانسان ، لأنه يجب على المنزل ان يدبر الأموال التى تلزمه بطريقة أو بأخرى ، فمن حولها الأشياء تغزو الأولاد القصر الذين لا يعملون شـــيئا • والأرض موحلة • وستظل النقود ناقصة ، لذا ، فعلى الصغيرة أن تبقى هنا كى تنمو وسوف تعرف يوما كيف تأتى بالنقود الى هذا المنزل • ولهذا السبب كانت أمى تســمح لطفلتها بالخروج مرتدية هــذه الملابس التى لا ترتديها سوى امرأة عاهرة • ولهذا أيضا فان الطفلة تعرف كيف تتصرف • فتحول الانتباه عنها • لأنها ترتديه بدافع الحاجة الى المال • وقد أضحك هذا الأم كثيرا •

لم تمنعها الأم ان تفعل ذلك طالما ان هذا يوفر المال • تقول الطفلة : طلبت منها خمسمائة قرش من أجل العودة الى فرنسا • تردد الأم ان هذا شيئا حسنا • وهو مبلغ يكفى للاقامة بباريس • ثم تعلق : ستذهبين والخمسمائة قرش • وتحسب الصفقة • ثم سترضخ الأم لما ستفعله ابنتها • فاذا سيطر الشر على الفكر فلن يكون سوى الارهاق •

فى كتبي الروائية التى تتحدث عن طفولتى ، لم أذكر أشياء كثيرة عما كنت أتجنب قوله • وما قلته • أعتقد أننى قلت ان الحب نكتة لأمهاتنا ، ولكننى لا أعرف هل تحدثت عن الحقد الذى نكنه أيضا • والحب الذى نشعر به تجاه شخص أو آخر • فالحقد شيء مرعب • وفى الحكايات العديدة من الانهيار والموت التى كانت تحدث فى أسرتنا ، كانت هناك قصص حب وقصص حقد • والتى تناقلت بصـــورة متتابعة • فاختبأت فى أعماق جسدى ، عمياء كمولود جديد فى يومه الاول • وعلى عتبتهـا يبدأ الصمت • كل ما حدث ، بشكل محدد ، هو الصمت ، وهذا العمل الرتيب فى كل حياتى • فمازلت هنا • أمام هذه الطفولة المحسوسة • على نفس المسافة من الغموض ، الذى لم أكتب عنه قط • مؤمنة اننى يمكن أن أفعل ذلك يوما : لكننى لم أفعل شيئا أبدا سوى الانتظار أمـــام الباب المغلق •

عندما وقفت فوق عبارة نهر الميكونج ، فى يوم سيارة الليموزين الداكنة ، لم تكن أمى قد غادرت حافة السد • ومن وقت لآخر • تسير فى الطريق مثلما كانت تفعل فيما قبل ليلا • حيث كنا نذهب معها • نحن الثلاثة دائما لقضـــاء بضعة أيام • ونبقى هناك فوق العبارة • أمام جبل سيام ثم نعاود الرحيل • لم يكن أمامها شيء تفعله ولكنها تعود اليه • نظل أنا وأخوتى على مقربة منها فوق العبارة أمام الغابة • أصبحت الآن كبيرة • فنستحم كثيرا فى المرفأ • ولانذهب لصيد الفهود السوداء فى مستنقعات المصبات ، لانذهب الى الغابة • ولا الى القرى حيث تزرع أشجار الفلفل الأسود • لقد كبر كل شيء حولنا • ولم يعد هناك أطفال يركبون الثيران ولا فى أماكن أخرى • أحسسنا ، أيضا ، بالغربة ، ببطء شديد مثلما أحست أمنا • لم نتعلم شيئا سوى التطلع الى الغابة • وأن ننتظر • وأن

نبكى • فقد ضاعت أراضى الفقراء تماما • وقام الخدم بزراعة قطع صغيرة من سطح الأرض • حيث يتمو الأرز • ويعيشون هناك بلا مورد يذكر ، يستغلون الأكواخ التى شيدتها أمى • يحبوننا وكأننا أعضاء فى أسرتهم • يتصرفون وكأنهم يحتفظون بحبات البنغل • يحتفظون به فعلا • فالفقراء لايتركون شيئا فى أطباقهم ورغم ذلك فان أثاث كوخهم نظيف • أما البنغل فيبدو نقيا أشبه برسم جميل تراه وأنت على الطريق ، أما البيوت فمفتوحة طيلة اليوم كى يمكن للرياح أن تمر وتجفف الأخشاب وفى المساء يغلقونها فى وجه الكلاب الضالة أو فى وجوه لصوص الجبال •

وكما كتبت ، فقد تذكرت يوما وأنا فى مقصف ريام ، بعد أن تركت المكان بعامين أو ثلاثة أعوام ، لقائى بالرجل الثرى صاحب السيارة الليموزين السوداء • تذكرت ذلك اليوم الذى أحكى عنه وسط الضوء المنبعث من الضباب والجو الحار •

فبعد عام ونصف • عادت أمى الى فرنسا فى صحبتنا • وباعت كل أثاثها ثم ذهبت عند الخزان لآخر مرة • جلست فوق العبارة تترقب الغروب • وتطلعت من جديد الى جبل سيام لآخر مرة • تعرف أنها لن تفعل ذلك قط فيما بعد • حتى لو غادرت فرنسا من جديد ، أو حتى لو غيرت رأيها . ثم عادت الى الهند الصينية من جديد . كى تنسحب الى سايجون • تعرف أنها لن تقف قط أمام هذا الجبل • أمام هذه السماء الصفراء •• وتلك الغابة الخضراء •

أجـــل ، كما أقول ، فمهما كان تأخرت الأمور فى حياتها • فعليها أن تبدأ من جديد • وسوف تؤسس مدرسة للغة الفرنسية • مدرسة فرنسية جديدة ، تمكنها أن تدفع جزءا من مصاريف دراستنا وان تحتفظ بابنها الأكبر الى جانبها فيما بقى لها من العمر •

ماتت الأخ الأصغر عقب مرض صدرى استمر ثلاثة أيام . لم يحتمل القلب . كنت قد تركتهم فى تلك الفترة . حدث ذلك ابان الاحتلال اليابانى . وانتهى كل شىء فى هذا اليوم . لم أطرح عليها أسئلة قط عن هذا اليوم . ولا عن طفولتها أو عنهـــا . ماتت أمى بالنسبة لى يوم أن مات أخى الأصغر . وحدث هذا أيضا مع أخى الأكبر . لم أستطع تجاوز الرعب الذى اجتاحنا فجأة . ولم يعد أى منهما يهمنى كثيرا . ولم أعرف شيئا عنهما عقب ذلك اليوم . لم أعرف كيف نجحت فى دفع ديونها الى الدائنين الذين توقفوا فجأة عن الحضور . رأيتهم جالسين فى قاعة ســادك الصغيرة . يرتدون تنورات بيضاء . ظلوا هناك دون أن ينطق أحد منهم بكلمة . لقـد ظللنا نسمع أمى تبكى طوال شهور وسنوات ، وهى تسبهم .. لزمت عرفتها ولم تود الخروج اليهم . ولم تصرخ فيهم أن يتركوها فى حالها . رنا عليهم الهدوء وهم يبتسمون . بقوا هناك ثم غادروا المكان ولم يأتوا قط بعد ذلك . لقد ماتوا جميعا : أمى وشقيقاى . وأيضا ذكرياتى معهم ، وتقدم بى الزمن ، والآن لم أعد أحبهم كثيرا . لا أعرف هل كنت أحبهم حين تركتهم . لم يعد فى رأسى شىء عن روائح بشرتهم .. ولم أعد أرى بعينى ألوان عيونهـم . ولم أعد أتذكر أصواتهم . عدا أنه تهب نسمة رقيقة ، أحيانا ، عنـدما يطل المساء . لم أعد أسمع ضحكاتهم ولا أصواتهم . انتهى كل شىء . ولم أعد أتذكر شيئا . ولذا أكتب الآن عنهم بسهولة . فقد مر زمن طويل .. زمن سحيق بعيد . وأصبحت خلاله كاتبة غزيرة الانتاج .

كان عليها أن تبقى فى سايجون بين عامى ١٩٣٢ و ١٩٤٩ . وفى ديسمبر ١٩٤٢ مات أخى الأصغر ولم تستطع المرأة ان تغادر المكان الى بقعة أخرى . ظلت هناك على مقربة من مقبرته كما تقول . ثم انتهت بالعودة الى فرنســا . عندما التقينا ثانية كان ابنى قد بلغ الثانية من العمر . بدا الوقت متأخرا لمثل هذا اللقاء . أدركت

ذلك عند النظرة الأولى . لم يعد هناك شيء مشترك بيننا . فقد أتى ابنها الأكبر على البقية الباقية من حياتها . ذهبت لتعيش وتموت في « لواشيه » بمبنى مبنى على طراز قصر لويس الرابع عشر . أقامت مع دوو . كانت تخاف ، أيضا ، من الليل . فاشترت بندقية ، جلست دوو تترقب في الغرف المسقوفة بالطابق الأخير من القصر . كما اشترت مسكنا لابنها الأكبر قريبا من امبواز . تحوطه الغابة حيث عليه أن يقوم بقطع الأخشاب ، الا أن أخي كان يذهب ليلعب القمار في نادى البكاراه بباريس . وراحت الأخشاب في ليلة واحدة هناك حيث تلتوى الذكريات بغتة . وحيث يدخل أخي مصحوبا بدموعه . يخبرها أنه خسر نقود الخشب . كل ما أذكره أننا عثرنا عليه نائما في سيارته ، في مونبارناس ، أمام مبنى الأكاديميـــة الفرنسية . وأنه أراد أن يموت . لم أعد أعرف شيئا بعد ذلك ، عما فعلته معه . فهى تتصرف دائما بما يثير الدهشة من أجل ابنها الأكبر الذى لايعرف شيئا في عرف أمه . الطفل الذى بلغ الخمسين من العمر . والذى عندما أراد أن يكسب نقودا ، اشترت له مفرخة دواجن كهربائية . ووضعتها في الصالة الكبيرة وأصبح لديها ، فجأة ستمائة فروج أربعمائة متر مربع من الفراريج . لكنه فشل في ادارة ذوى العروف الحمراء ولم ينجح في توفير الغذاء للستمائة فروج ذوى المناقير التي لا تشبع أبدا . ولا تنغلق عن الطعام . فنفقوا جميعا من الجوع . ولم تتكرر التجربة مرة ثانية . حضرت الى القصر أثناء فقس الفراريج . وبدأ كأن هناك حفلا . حيث فاحت روائح الفراريج النافقة واغذيتها . لم أعد استطيع أن آكل في القصر . أنا وأمي دون أن نتقيأ .

ماتت أمي بين دوو وما تسميه طفلها المدلل في غرفتها الكبيرة بالطابق الأول ، الذى كانت تضع فيه الخراف النائمة . من أربعة الى ستة خراف حول سريرها في فترة الكمون أثناء فصول الشتاء الطويل . آخر الفصول التي عاشتها .

هناك ، فى منزلها الأخير ، فى منطقة اللوار • انتهى كل شيء من مرواحها ومجيئها اللذين لم يتوقفا وحلت نهاية كل أمور هذه الأسرة • أرى ، هناك ، الجنون سافروا للمرة الأولى • أرى جنون أمى جليا ، وأرى أن دوو • وأخى كانا سببا لاصابتها بالجنون • أما أنا ، فلا ، لم أكن قد رأيتها قبل ذلك بفترة • ولم يسبق ان رأيت أمى فى حالة مماثلة لهذا الجنون • رغم ان الجنون كان ، منذ ولادتها ، ساكنا فى دمها • لم تكن مريضة بالخبل ، بل عاشت الجنون فى صمتها • بين دوو وابنها الأكبر ، دون أن يكون هناك شخص آخر بينهما كى يمكنه ان يشهد ذلك • رغم ان لديها العديد من الأصدقاء • الذين احتفظت بهم سنوات طويلة • يتجددون دائما • وانما هناك شباب من الوافدين على وظائف البورصة ، وفيما بعد انضم اليهم ناس من سكان تورين ؛ ومن بينهم العائدون من المستعمرات الفرنسية • جمعت حولها ناسا من كافة الأعمار ، معجبين بذكائها وحيويتها وبهجتها وتلقائيتها التى لا تقارن أبدا ولا تثير مللا •

لا أعرف من التقط تلك الصورة التى تعبر عن اليأس • تلك التى التقطت فى فناء منزل هانوى • يظهر أبى فى الصورة لآخر مرة • فبعد بضعة أشهر رحل الى فرنسا لأسباب صحية • وقبل ذلك غير وظيفته وعين فى بنوم بنه ، فى هذا المنزل العجيب الذى يطل على نهر الميكونج • قصر قديم كان يسكنه ملك كمبوديا ، وسط هذه الحديقة المفزعة • التى تبلغ مساحتها عشرات الهكتارات • هناك كانت أمى تصاب بالهلع • فالليل يخيفنا • لذا كنا ننام نحن الأربعة فى سرير واحد • تردد أنها خائفة من الليل • وفى هذا المنزل علمت بوفاة أبى • علمت قبل وصول البرقية • فى الليلة السابقة على رحيله • بادزة واحدة جعلتها تحس أنها الوحيدة التى رأته وعرفت وسمعت • هذا الطائر الذى سمعته يئن مجنونا وسط

الليل ، ضائعا فى المكتب الذى يقع فى الطرف الشمالى للقصر .
أحسست أنه أبى . هناك أيضا بعد أيام من وفاة زوجها ووسط الليل
وجدت أمى نفسها أمام صورة أبيها . أبوها هى أضاءت الأنوار .
رأته هناك يقف قريبا من المائدة . منتصبا فى القاعة الكبرى المثمنة
الزوايا ينظر اليها . أذكر صرخاتها . أيقظتنا بنداءاتها . قصت
علينا الحكاية . كيف كان يرتدى ملابس يوم الأحد الرمادية .
وكيف كان يقف ، ونظرته المثبتة عليها . قالت ناديته مثلما كنت
أفعل وأنا صغيرة . قالت : لم أخف . هرولت نحو الصورة التى
سرعان ما تلاشت . لقد مات الاثنان فى نفس التاريخ . وصدح
عصفور ساعة الحائط ، وتحركت الصورة . وتملكتنا الدهشة التى
ورثناها عن أمنا ، ازاء كل شىء . ومن بينها الموت .

نزل الرجل الأنيق من السيارة الليموزين ، يدخن سيجارة
انجليزية ، ينظر الى الفتاة الشابة ذات القبعة الرجولية والحذاء
الذهبى . تقدم نحوها فى بطء من الملاحظ أنه أكثر جرأة . لا تسفر
شفتاه عن أى ابتسامة . يبدأ بأن مد لها سيجارة . يداه ترتعدان .
فهناك اختلاف فى العنصر . فهو ليس برجل أبيض . ولأنه يجب
أن يتفوق عليها . فقد ارتعد . أخبرته أنها لا تدخن . « شكرا »
لم تضف المزيد . لم تقل له دعنى فى حالى . أصبح أقل خوفا .
حدثها انه تصور أنه فى حلم . لم ترد . فهى ليست مستعدة للرد ،
فبما تجيب . انتظرته . فسألها : من أين أنت ؟ أخبرته انها ابنة
مدرسة البنات بسادك ، فكر ، ثم قال انه انتظر طويلا كى يحادث
هذه المرأة ، أمها ، وعن حظها السيىء فوق هذه الأرض المستعمرة
التى اشترتها فى كمبوديا . أليس كذلك ؟ نعم هو كذلك .

كرر عليها أنه لأمر غريب أن يراها فوق العبارة ، فى وقت
مبكر من الصباح فتاة صغيرة وجميلة مثلها . أنت لا تعرفين قيمة
نفسك ، هذا أمر غير متوقع ، فتاة صغيرة فى عربة لا تليق بمقامها .

حدثها أن القبعة جميلة ، بل انها بالغة الجمال ، وأنها ٠٠ فريدة فى نوعها ٠ قبعة رجل ، ولم لا ؟ انها حلوة جدا ٠ فهى يمكن ان تتيح لها التصرف بتلقائية ٠

نظرت اليه وسألته من هو ؟ ٠ أخبرها أنه عائد من باريس ٠ حيث كان يدرس ويقيم هناك ، فى منزل يطل على النهر مباشرة ٠ منزل كبير فى مواجهته توجد أراض فسيحة وله درابزين من السيراميك الأزرق ٠ سألته من هو ؟ ٠ أجابها انه صينى وان أسرته من شمال الصين ٠ من مقاطعة فوشوان ، « هل تسمحين لى أن أصحبك الى منزلك فى سايجون ؟ » وافقت ٠ أمر السائق أن يأخذ الحقائب من الفتاة الصغيرة من سيارة الأجرة وأن يضعها فى سيارته السوداء ٠

صينى ٠ اذن فهو من الأقلية البيضاء ذات الأصل الصينى التى تملك غالبية العقارات السكانية بالمستعمرة ٠ وفى ذلك اليوم كان متوجها الى سايجون ٠

دخلت السيارة السوداء ، وأغلق الباب ، أحست ، فجأة ، بتوتر ، وتعب ٠ ورأت الأضـــواء المنعكسة فوق صـفحة النهر ، وأحست أنها تكاد أن تصاب بصمم خفيف فى أذنها ٠ بينما يعم الضباب المكان ٠

لن أقم قط برحلة سفر فى سيارات المستوطنين ٠ ومن الآن فصاعدا ٠ أصبحت لى سيارة ليموزين ٠ تذهب بى الى مدرسة الليسيه وتعيدنى الى مسكنى ، أتناول غدائى فى الأحياء الراقية بالمدينة ، وأصبح لدى كل ما أقدم على فعله وأتحرك فى اطاره ٠ وما أنا له من الخير والشر ، سيارة ، وسائق سيارة أضاحكه ، فراح زمن العواجيز اللائى يجلسن خلفى فى سيارات الأجرة وهن

يمضغن اللبان ، والأطفال ، الذين يحملون الأمتعة • وأسرة سادك ، والرعب الذى يستولى على أسرة سادك • وصمتها الذى يصل الى حد اثارة الجنون •

تكلم ، قال انه أحس بالملل من باريس ، ومن الباريسيات الحسناوات ، ومن حفلات الاستقبال والزفاف ، ومن القنابل •• آه •• وأيضا من مبنى الكوبول (الأكاديمية الفرنسية) ، ومن أسطح المنازل ذوات القباب المستديرة • أما أنا فأفضل القباب المستديرة ، وعلب الليل • وهذا الكيان « المدهش » الذى عاشه طيلة عامين . استمعت بانتباه شديد الى خطابه الذى القاه حول الثراء • لم يكن ينقصه الدليل أن يقول ان رصيده يبلغ الملايين • استكمل حكايته وقال ان أمه ماتت ، وهو طفل • طفل وحيد • لم يعد له سوى أبيه الذى يمده دائما بالنقود • لكن أتعرفين من هو • انه مشغول دائما بغليون الأفيون ، يدخنه طوال عشر سنوات وهو يجلس أما النهر • أدار ثروته منذ نعومة أظافره • علقت أنها تلاحظ ذلك جيدا •

هذا الأب سيرفض ، بلا شك ، أن يتزوج ابنه من عاهرة بيضاء صغيرة تعمل أسرتها فى ادارة سادك •

بدت ملامح الصورة قبل ان يلمس الطفلة البيضاء ، وهى مستندة الى أحبال العبارة ، وفى اللحظة التى نزل فيها من سيارة الليموزين السوداء • وعندما بدأ فى الاقتراب منها • عرفت وأدركت أنه خائف •

عرفت كل شىء منذ الوهلة الأولى • عرفت أنه يستحق الشكر ، ومن ناحية أخرى فهى أيضا تستحق الشكر لأنها أتاحت له الفرصة • فهى تعرف ، أيضا ، شيئا آخر • ومن الآن فصاعدا سيصبح الزمن فى صفها • فلا يمكنها الفرار من بعض الحقوق

الواجبة ازاء نفسها • وعلى هذا فيجب الا تعرف الأم شيئا • وأيضا أخوتها • أدركت ذلك منذ اللحظة الأولى • عندما قبلت ان تركب السيارة السوداء • لقد عرفته • وأحست ان مسافة بعيدة تفصلها عن هذه الأسرة للمرة الأولى ، وربما للأبد . فيجب ألا يعرفوا مايحدث معها • والا أمكنهم ان يمسكوا عليها شيئا • وسيضغطون فوق كاهلها • وسيضعون ثقلا فوق جرحها • وهذا سيفسد الأمر • لذا يجب ألا يعرفوا ، لا أمها ولا أخوتها • سوف تتصرف على هـذا المتوال •• لذا بكت وهى داخل سيارة الليموزين السوداء •

كان يوم خميس ، بدأ فى الحضور يوميـا لمرافقتهـا عقب خروجهـا من المدرسـة ليصحبهـا الى البنسيون ، وفى أحد أيام الخميس ، أيضا ، اصطحبها من البنسيون فى سيارته السوداء الى مكان آخر •• فى ضاحية شولن •••

سـارت بهما السيارة تخترق الطرق الواسعة التى تربـط المدينة الصينية بوسط مدينة سايجون • هذه الطرق البالغة الاتساع على الطراز الأمريكى • تخترقهـا عربات الترام والمركبـات ، والسيارات • كان الوقت مبكرا ، بعد الظهيرة مباشرة • وكانت سعيدة لأنهـا استطاعت الافـلات من نزهة اجبـارية مع بنـات البنسيون •

وهناك ، ذهبا الى حجرة صغيرة فى جنوب المدينة • فى أحد الأحياء الحديثة • المشيدة على أحدث طراز معمارى • حيث العمارات الفخمة العالية • قال لها : لا أحب ركوب العبارات • عندما دخلت الحجرة كان المكان مظلمـا لم تطلب أن يفتـح النوافذ المغلقـة • لم يخالجها شعور محدد • فهى بلا حقد ، أو استنفار • لكن هناك شىء تجهله تماما من قبل • أحست بشىء يتتابها عندما قال لها مساء الأمس انهما سيذهبان هناك حيث يجب ان يكونا • لمسها • فسرت

فيهـــا رعشـــــة بسيطة من الخوف · أحس أن هذا شيء يتفق مع ما تنتظره منه · وأن هذا الشيء يجب أن يحـدث فى مثـل هذه الأمور · حالتهـا · وبدأت شـــديدة الانتبـــاه لما يحدث فى الخارج الى ضوضـــاء المدينـــة بالغرف الأرضـــية · أما هو فوقف يرتجف · نظر اليهـــا · كأنه ينتظر أن تتـــكلم · لكنهـــا لم تتكلم · أما هو فلم يتحـــرك مـن مكانه · قاله انه يحبها بجنون · قال ذلك بصوت خفيض · ثم سكت · لم ترد عليه · ورغم انها فى استطاعتها ان تخبره أنها لا تحبه · لكنها لم تقل شـيئا ، أدركت ذلك ، فجأة ، وبالغريزة · أحست أنـه لا يعرفها جيدا · وأنه لن يعرفها قط · وأنه لا يمتلك الوسيلة للتعرف عليها · بل وانه سوف يجرب آلاف الطرق الملتوية من أجل النيل منها · لكنه لن يبلغ ذلك قط · وعليها أن تعرف ذلك · بل انها تعرف · فقد بدا مدى جهله بها · أحست فجأة أنه أعجبها ، وأنها أعجبته وأن الأمر يتعلق بها ، بها وحدها ·

قالت له : أفضل الا تحبنى أبدا · حتى ان كنت تحبنى · فانني أريدك أن تتصرف مثلما تفعل مع بقية النساء · نظر اليها مندهشا · وسألها : هل هذا ما تريدين ؟ · ردت بالايجاب · وبدأت المعاناة · فهما فى هذا المكان لأول مرة · وهو لم يكذب عليها حتى الآن خاصة فيما يتعلق بهذه النقطة · أخبرها أنه يعرف أنها لن تحبه أبدا · تركته يتكلم · فى أول الأمر أخبرته أنها لا تعرف ثم تركته يتكلم ·

أخبرها أنه انسان وحيد · وحيد بصورة موحشة · مع هذا الحب الذى يكنه لها · قالت انها أيضا وحيدة · لكنها لم تقل كيف · قال : لقد تبعتنى الى هنـا مثلما تتبعين أى شخص · اجابت أنها لا يمكن أن تعرف · وأنها لم تذهب أبدا مع أى شخص الى غرفته ، أخبرته أنها لا تريده أن يتكلم معها · وأنها تريده أن

يتصرف مثلما اعتاد مع النســاء اللائى يأتى بهن الى غرفته • ثم توسلت اليه ان يتصرف بهذا الاسلوب •

استدار الى الناحية الأخرى من السرير وأجهش • وببــطء وبتؤدة جذبته نحوها •

أغلقت عينيها • فتسلل بخفة حتى لا يضايقها •

كان ذا بشرة رقيقة • ملســاء • أما عن جســده ، فالجسد نحيف ، بلا حول أو قوة • وبلا عضلات • لعله مريض • وفى حالة نقاهة • انه بلا شــعر فى جسمه • انه بالغ الضــعف • معاناة شديدة • لم تتطلع الى وجهه • ولم تنظر اليه • لمسته • لمست بشرته الرخوة • وداعبت شعره الذهبى فبكى • انه فى حالة حب غير مكتملة •

وبينما هو يبكى ، أحس بالألم • وعقب هذا الألم الذى تملكه أحست بالتغير • فنزعت نفسها من الجو الذى وجدت نفسها فيه • وبدا شديد الارتباك ••

وأحست أن هذا الخضم العنيف من البحر •• لم يسفر عن أى شىء •

لم تتضح لها الصورة الأولية عنه فوق العبارة ، سوى فى هذه اللحظة •

صورة امرأة ذات جورب مرتق عبر الغرفة • وبدت أخيرا كطفلة • يعرفها الضبية جيدا • لم تنضج بعد • لم يتكلموا معا عن الأم • ولا عن معرفتهم بهذه الأمور التى تجمعهما وتفرقهما • عن هذه المعرفة المجحودة • ولا عن طفولة الأم •

فلا شك ، أن الأم لم تعرف المتعة قط .

سألتني ان كان قد أصابني مكروه . فأجبته بالنفى . قال انه سعيد بهذا .

تساءلت كيف واتتني القوة أن أسير في عكس الممنوع الذى فرضته أمي وسط هذا السكون . وهذا التحديد . لم أستطع أن أصل الى أطراف هذه الفكرة .

تبادلنا النظرات . سألني لماذا جئت معه . قلت انه كان يجب أن أفعل ذلك . وكان هذا أمرا حتميا . أنها المرة الأولى التى نتكلم فيها . حدثته عن وجود شقيقي . أخبرته اننا نفتقر الى المال . كان يعرف أخي الأكبر ، التقـــاه فى الأماكن المخصصة للتدخين في المكاتب . قلت ان هذا الأخ سرق أمي كى يدخن . وأنه يسرق الخدم . وأحيـــانا يسرق مديرى المداخن الذين يأتون لاعطاء المال لأمي . حدثته عن أحوالنا الماليـة . وأخبرته أن أمي ستموت اذا ظلت الأمور على هذا الحال . وان الموت قريب الطرف من أمي . وأن ما حدث لى اليوم قد يعجل بموتها .

رثى لحالى . سألني ان كنت أرغب فيه . فأجبته بالنفى . وأنني لست محل رثاء . وأن أحدا لم يرث لحالى سوى أمي . قال لى : لقد جئت لأن معى نقودا قالت انني أرغب فيه أيضا فضلا عن أمواله . منذ أن رأيته في هذه السيارة . ومع هذه التصريحات لم أستطع أن أعرف ما يمكن ان يحدث لى من ناحية أخرى . قال لى : أريد أن أصحبك . وأن أرحـل معك . قلت : لا أستطيع فالوقت لم يحن كى أترك أمي . خاصة أنها تكاد أن تموت من الألم . قال انه قرر ألا يجرب حظه معى . ومع هذا سوف يعطيني نقودا . وعلى ألا أقلق . وتمدد مرة ثانية . ومن جديد ران صمت .

تسربت الينا ضوضاء المدينة البالغة الحدة . أذكرها الآن أشبه

بصوت عال فى شريط سينمائى ، يكاد يصم الآذان . أذكر جيداً كم كانت الحجرة مظلمة . التزمنا الصمت . تحوطنا ضوضاء المدينة التى لا تتوقف . تتسرب من المدينة . من قطار الضواحى عبر النوافذ التى تحطم زجاجها . ليس بها سوى الستائر والنوافذ الخشبية . ومن خلال الستائر نرى الناس يمرون بظلالهم عبر الأرصفة . هذه الحشود المزدحمة المتدفقة دوما . وتتسلل الظلال بشكل منتظم عبر فتحات « الشيش » المغلق . وقرقعات القباقيب ، كأنها تفقد الرؤوس صوابها . حادة بأصواتها . فالصينيون ينطقون لغتهم دائما ، كما تخيلت ، وكأنها لغة مصنوعة من الصحراء . لغة عربية بشكل مثير .

انتهى اليوم فى الخارج . عرفنا ذلك من خلال الضوضاء التى يحدثها المارة الذين يتزايدون ويضطرد اختلاطهم معا . انها مدينة المتعة التى تعج بأبنائها طيلة الليل . حيث يبدأ الليل مباشرة عقب غروب الشمس .

يفصل السرير عن المدينة من خلال هذه النافذة التى تحجب الصوت . وستائر من القطن . ولا توجد أية حواجز صلبة تفصلنا عن هؤلاء الناس . فهم يجهلون وجودنا ، أما نحن ، فنلاحظ كل شىء يتعلق بهم . أصواتهم العالية . وتحركاتهم . وكأنها نفير سيارة يطلق نداءات متقطعة ، حزينة ، لا رجع لصداها .

تسربت الى الغرفة روائح الحلوى . رائحة فستق محمص ، والحساءات الصينية ، واللحوم المشوية ، والأعشاب وأزهار الياسمين ، والغبار ، والبخور . وروائح احتراق الفحم النباتى . وانتقلت روائح النيران بين السلال . وكأنها تباع فى الشوارع فتبدو رائحة المدينة أشبه بروائح القرى التى يباع فيها الجبن . ورائحة الغابات .

رأيته ، فجأة ، يجلس في المقصورة الداكنة ، يحتسي الويسكي، ويدخن أخبرني أن النوم غلبني ، وأنه انتهز هذه الفرصة كي يستحم . أحسست بالنعاس ، فاشعل مصباحا فوق المائدة الواطئة.

انه رجل له عاداته ، يحب أن يأتي دائما الى هذا المكان . رجل يحب ممارسة الحب بشكل دائم ، رجل خواف وعليه ان يمارس الحب كثيرا من أجل قهر الخوف . أخبرته أنني أحبذ أن يكون بصحبته نساء كثيرات . وان أكون من بين نسائه اللائي وقعن في طريقه . تبادلنا النظرات ، وفهم ما قلته .. تبدلت النظرة فجأة وأصبحت زائغة ، يكسوها الشر ، والموت .

طلبت منه أن يأتي الى . وأن علينا أن نعاود الكرة مرة أخرى .. جاء . كان يحس بالمتعة وهو يدخن السيجارة الانجليزية . ثم ينفث دخانه الكثيف .. أحس بالكسل وبقوة بشرته فوق الفراش الحريري . وبالتسبيج الحريري الهندي المرصع بالذهب . شعر أنه رجل مرغوب . طلب مني أن أنتظر بعض الوقت . كلمتي وقال انه عندما رآني أول مرة ، عند عبور النهر ، أحس أن شيئا سيحدث بيننا ، وأنه سيصبح حبي الأول . قال أنه عرف آنذاك أنني أحببته . قال ان ذلك ، بالنسبة له ، يشكل أداة خاصة للحزن . أما أنا فقد شعرت بالسعادة لكل ما قاله . وأخبرته بما أحس الا أنه أصبح جافا . وصدمني احساسه باليأس . فجأة رمى نفسه . وتأوه . وهو يشتمني . أغلقت عيني وأنا أشعر بمتعة لا حد لقوتها .

وأنا أفكر : لقد اعتاد أن يفعل ذلك في الحياة ، وفي الحب أيضا . فيداه خبيرتان بشكل مروع ومميز . كم أنا امرأة محظوظة للغاية . وهذا واضح . قال لي انني حبه الأوحد ، وانه يجب أن يقول هذا وان هذا هو ما يجب أن يقال عندما نترك أنفسنا نتصرف . وآنذاك يبدو كل شيء على ما يرام .

أصوات المدينة قريبة ، قريبة للغاية ، أكثر اقترابا وكأننا نسمعها تحتك بخشب النافذة . نسمعها وكأنها تتحرك مع العربة . داعبته وسط هذه الأصوات . وهذا الممر . والبحر المتلاطم ، وتزايدت أصوات المجاميع . ثم انخفضت مرة أخرى .

أشعل سيجارة ، ومدها لى بين شفتى ثم أخذ يكلمنى .

تكلمت معه ، أيضا ، بصوت خفيض .

ولأنه لا يعرف شيئا عن نفسه ، أخذت أتحدث معه عن نفسه ، وعن مكانه ولأنه لا يعرف أنه يحمل في نفسه جاذبية شديدة ، فقد أخبرته بذلك .

ثم حل المساء ، أخبرنى أننى على أن أتذكر حياتى بأكملها . منذ تلك اللحظة التى التقيته فيها . حتى لو نسيت وجهه واسمه ، قال لى : انظرى نحوى جيدا . نظرت اليه . قلت انه مثل كل البيوت . هز رأسه بالايجاب . وقال انه مثل كل المنازل .

اذا كان الوجه قد محى من الذاكرة . فلا زلت أذكر الاسم ، وأرى الجدران البيضاء ، والستار الكتانى الذى يفصلنا عن أتون الشارع الشديد السخونة . والباب الآخر الذى يفتح على ممر يؤدى الى الغرفة الأخرى . والى حديقة مفتوحة تطل على السماء ماتت فيها كل النباتات من الحرارة الشديدة . تحوطها أسوار زرقاء مثل فيلات سادك الكبرى وبها شرفة مفتوحة تطل على نهر الميكونج .

أحس أننى فى مكان مصنوع للضغط على التنفس ، فأغرق فيه ، سألنى فيم أفكر ؟ أخبرته أننى أفكر فى أمى ، وأنها ستقتلنى لو عرفت الحقيقة . أحسست به يبذل مجهودا ثم تكلم . قال انه يفهم ماذا يريد أن يخبر أمى ، ثم علق : ياللعار ، ثم قال انه لا يمكنه ان يتحمل فكرة الزواج . تطلعت اليه ، ونظر إلى بدوره . ثم قال

انه لهذا لا يمارس الحب أثناء النهار • ثم ابتسم وقال : المرعب دائما هو أن يكون المرء محبوبا أو غير محبوب •

أخبرته أننا لسنا في النهار ، وكم هو مخدوع • وانني حزينة . أنتظره فلا يأتي الى • لذا فأنا حزينة دوما لهذا • حيث أرى نفسي صغيرة • ومع ذلك فقد آلفت الحزن • وعرفناه وكأننا نمارسه دائما • أخبرته أنني يمكن أن أعطيه اسمي حتى لا يلومني • وقلت ان الحزن لم يعد أمرا طيبا • وان أمي تحدثني دوما أنها كمن يصرخ في صحراء واسعة • من كثرة أحزانها ، قلت له : لا أفهم ما تعنيه بشكل جيد • لكنني أعرف ان هذه هي الغرفة التي كنت أنشدها •• تكلمت دون أن أنتظر منه اجابة • أخبرته أن أمي تصرخ بما تؤمن به وكأنه مبعوث الهي • تصرخ أنه يجب الا ننتظر شيئا من أحد • مهما كانت هويته • فالأمر دائما موكل الى الله ! • ينظر الى وأنا أتكلم ، لم يبعد عينيه عني • نظر الى شفتي وهما تتحركان • ثم داعبني • لعله لا يسمع شيئا • لا أعرف • قلت له انني لم أرتكب شرا حتى أجد نفسي في هذا الحال • حكيت له أننا نعاني من صعوبات في توفير الطعام • والملابس وأننا نعيش على حد الكفاف ، بمرتب أمي • شعرت بالألم وأنا أفرط في الكلام • سأل : كيف تتصرفون ؟ قلت ان المسألة أصبحت خارج ارادتنا • وان المأساة قد جعلت جدران أسرتنا تنهار ووجد الجميع أنفسهم خارج الدار • وبدأ كل شخص يتصرف على هواه •

أبكتني قبلاته ، يقال ان هذا يبعث على المواساة • وأنا لا أبكي مثلما بكيت في هذا اليوم • ففي تلك الغرفة داهمتني كل دموع الماضي والمستقبل • وأخبرته أن أمي انفصلت عني يوما • وأنني لم أحب أمي أبدا ! • بكيت • وضع رأسه فوقي وبكى وهو يراني أفعل • أخبرته أن فقر أمي ، في طفولتي ، قد شكل مكانا من الحلم • وأن أمي كانت حلما • وأنني لم أر أبدا أشجار أعياد الميلاد

وأن أمي امرأة وحيدة • وأنها أم مطاردة تعيش المأساة التي عاشتها بكافة أبعادها وكأنها تتكلم في صحراء جرداء • وأنها ظلت طيلة عمرها تبحث عن غذاء وعن شخص تحكي له ما حدث لها ، وما كان يحدث لها دوما • مثل ماري لجران دي روبيه • فتكلمها عن براءتها • وعن ظروفها الاقتصادية • وعن آمالها •

نفذ الينا الليل عبر فتحات النوافذ الخشبية • وارتفعت أصوات الضوضاء • وأصبحت أكثر حدة والتزمت الصمت أكثر • وعندما أضاء المصابيح الحمراء ، خرجنا من المنزل • وارتديت القبعة ذات الشريط الاسود التي لا يرتديها سوى الرجال • ثم الحذاء الذهبي • ووضعت أحمر الشفاه الداكن • وارتديت الرداء الحريري • وأحسست انني غدوت عجوزا • أدركت بذلك بغتة • وعندما لاحظ هذا قال : لأنك مرهقة •

وعلى الرصيف ، تسير جموع غفيرة في كافة الاتجاهات • ببطء وحيوية • تذوب في الممرات وتتحرك كالكلاب الضالة • أصابها العماء مثل الشحاذين ، حشد من الكلاب ، أراهم في ذاكرتي بكل وضوح • يسيرون معا وقد أصابتهم عجالة • أما أنا فأجد نفسي كمن يسير وحيدا وسط هذا الجمع • لا أشعر بأي سعادة • وبلا أحزان وبلا فضول • أسير كمن يمشي دون أن يبدو عليه ذلك ودون أن تكون لدي الرغبة في الذهاب • لكنني أتحرك فقط من هنا الى هناك • وحيدين في الزحام ، أما أنا فوحيدة دائما • وحيدة وسط الزحام •

ذهبنا الى أحد المطاعم الصينية الفخمة • يوجد في مدخل احدى العمارات الكبيرة • وهو مثل كل المحلات الكبيرة والبنايات • يطل على المدينة بشرفات كبيرة وصغيرة • وعادة فان الضجة التي تصدر من العمارات ، لا تحتمل في أوروبا • تصدر من طلبات العمال

الصارخة ، وصدى الملاعق ، وزعيق المطبخ أما فى هذه المطاعم فلا أحد يتكلم • وفوق الشرفة يوجد أوركسترا صينى • لذا اتجهنا الى الطابق الأكثر هدوءا ، الذى يؤمه الأوربيون • فرغم ان قائمة الطعام لا تتغير • الا أن الضجة أقل • وهناك هوايات وجدران سميكة تمنع تسرب الضجة •

سألته أن يحدثنى عن ثراء أبيه ، وكيف أصابه الثراء • قال ان الحديث عن المال يثير الملل • وعندما أصررت ان أعرف أخبرنى أنه يعلم شيئا بسيطا عن ثروة أبيه • فقد بدا كل شىء فى شولن من خلال المساكن الشعبية • حيث قام ببناء ثلاثمائة مبنى • وهو يملك أكثر شوارع شولن • ويتكلم الفرنسية بلهجة باريسية ثقيلة قليلا • ويتكلم عن النقود بوقاحة بادية • فالأب يمتلك عمارات باعها من أجل شراء أرض ليبنيها فى جنوب شولن • كما باع أيضا ، كما يعتقد ، حقول أرز فى سادك • وسألته عن الوباء • أخبرته أننى رأيت شوارع داخلية ذوات مبان مغلقة ممنوع دخولها • ابتداء من أول الليل وحتى صباح اليوم التالى • دقت الأبواب والنوافذ بالمسامير بسبب وباء الطاعون قال ان الطاعون أقل درجة هنا • وان مكافحة الأوبئة أكثر عددا من النقود فى البورصة • ثم حكى لى حكاية عن المساكن الشعبية • فقد ارتفعت أسعارها بنسبة أقل من أسعار العمارات • أو المبانى الخاصة • وذلك لزيادة الطلب على المساكن فى الأحياء الشعبية التى تتصل أبنيتها • فالسكان هنا يحبون ان يكونوا معا ، خاصة السكان الفقراء الذين نزحوا من الريف • ويميلون الى المعيشة فى الخلاء • فى الشارع • لا يجب ان تقتل عادة للفقراء • وقد انتهى أبوه لتوه من تشييد سلسلة من المبانى المفتوحة التى تطل على الشارع • مما جعل الشوارع مضاءة دائما • وبالغة الجاذبية • يناموت فيها عندما تشتد حرارة الجو • أخبرته أننى بدورى أحب أن أسكن فى الأماكن المفتوحة وقد بدت لى

هذه الفكرة نموذجية عندما كنت طفلة . وأننـا يجب أن نكون فى خارج المنزل كى ننام . أحسست بالألم فجأة . ألم خفيف . دقات فى قلبى . فى جراحى الحية . المولودة لتوها . والتى يمكن ان يسببها لى ، ذلك الذى يتكلم معى . ذلك الذى أحسسنى بالمتعة بعد الظهيرة . لا أسمع أكثر مما يقوله لى . ولا أسمع كثيرا مما يدور حولى . عندما سكت أخبرته أن يستطرد فى الكلام . ففعل ، وسمعته من جديد . قال انه يفكر كثيرا فى باريس . وانه يجدنى مختلفة كثيرا عن الباريسيات . واننى أكثر لطفا . أخبرته أن هذا النوع من المبانى يجب ألا يزداد على حد معين . فلم يرد .

وابان فترة علاقتنا . وطوال عام ونصف . كنا نتكلم بنفس الأسلوب . لا نتكلم سوى عن أنفسنا . منذ اليوم الأول ، كنا نعرف ان هناك مستقبلا مشتركا غير محدد المعالم . ولم نتكلم أبدا عن المستقبل ، كنا نطرح أفكارا مثل الصحافيين ، متبادلة ومتوازية .

أخبرته أن اقامته فى فرنسا تشكل حلا حتما بالنسبة له . فاقتنع بذلك . وقال انه اشترى أشياء كثيرة فى باريس . نساءها ومعارضها وأفكارها . وأنه يكبرنى باثنى عشر عاما . وهذا وحده يثير الخوف . سمعته وهو يتكلم . ورأيته وهو يخطىء . وأحسست به وهو يحبنى بنوع من التمثيل المتكلف فيه ولكنه ملىء بالصدق .

لم يكن يستطيع أن يعبر عن مشاعره سوى من خلال المغالاة فى التمثيل ، اكتشفت أنه لا يمتلك القدرة ان يحبنى ضد رغبته أبيه ، وانه لا يمكنه ان يصحبنى لمقابلته . بكى دوما لأنه لم يجد القوة ان يجتاز حاجز الخوف . يمارس بطولته على وحدى . أما ضعفه فموجود فى نقود أبيه .

عندما حدثته عن أخى هوى فى قاع هذا الخوف . وكأنه كان يرتدى قناعا خارجيا . اعتقد أن الدنيا كلها من حولى تنتظر منه

ان يطلب الاقتران بى • يعرف انه مخلوق ضائع فى عيون أفراد أسرتى • وانه بالنسبة لها لا يمكنه سوى ان يضيع أكثر • وقد يفقدنى فى هذه الظروف •

قال انه ذهب من أجل الدراسة بالمدرسة التجارية فى باريس. وأخبرنى بالحقيقة كاملة • وانه لم يستكمل تعليمه • وان أباه قطع عليه خط الحياة • فأرسل له تذكرة العودة • وأجبره أن يغادر فرنسا • وكانت العودة حدثا مأساويا • فلم ينه دراسته بالمدرسة التجارية • قال انه اعتمد ان ينه دراسته هنا من خلال دروس بالمراسلة •

بدأت اللقاءات مع الأسرة من خلال دعوات على الغداء فى شولن • فبمناسبة حضور أمى وأخوتى الى سايجون • أخبرته انه يجب ان يدعوهم فى أحد المحلات الصينية الكبرى التى لا يرتادونها• والتى لا يعرفونها أبدا •

كانت تلك الأمسيات تمر بنفس الوتيرة • فيصاب أخوتى بخيبة أمل ولا يوجهون لى أى أسئلة ولا ينظرون اليه كثيرا • ولا يمكنهم ان يفعلوا ذلك • واذا استطاعوا ان يفعلوا • فمن أجل ان يرونه • كانوا قادزين ، من ناحيتهم ، على ممارسة ضغوطهم وان يسيروا على حسب القواعد الأساسية للحياة داخل المجتمع وأثناء هذه الدعوات كانت أمى هى الشخص الوحيد الذى يتكلم • فى أول الأمر تتكلم قليلا • ثم تدلى ببعض التعليقات حول طريقة وضع الأطباق • وعن أسعارها الغالية • ثم تلتزم الصمت • أما هو ففى المرتين الأولتين كان يصدق الكلام • ويحاول أن يروى حكايات عن مغامراته فى باريس • لكن بلا جدوى • وكأنه لا يتكلم• وكأن أحدا لا يسمعه • وكانت محاولاته تهوى داخل جب سحيق •

ويستمر أخوتي في جعله يحس بالخيبة • يبدون وكأنني مصابة بخيبة أمل لم تحدث لأحد •

يدفع ، ثم يحسب النقود • ويضعها فوق الطبق • فينظر اليه الجميع • في المرات الاولى ، كما أذكر ، كان يضع سبعة وسبعين قرشا • فكادت أمي أن تنفجر ضاحكة • ثم قمنا لمغادرة المكان • بلا كلمة شكر واحدة من أي منهم • ولم تنبث بكلمة شكر لقاء دعوة عشاء فاخرة • فلا سلام عند اللقاء أو الوداع • وكان لا شيء هناك . ولا كلام يقال •

لم يوجه اليه أخوتي أي كلمات • وكأنه شيء غير موجود بالنسبة لهم • وكأنه شيء غير منظور تصعب رؤيته • أو يصعب ان تسمعه • أما هو فقد وضع في أعماقه انني لا أحبه • وان ما يحدث ضرب من المستحيل •• وأنه يمكنه ان يتحمل أي شيء مني دون أن يكون طرفا في هذا الحب •• هذا لأنه صيني وليس أبيض • لقد تجاهل أخي الأكبر وجود حبيبي باسلوب يعكس مفهوما خاصا لهذا المخلوق •• مثل تصرف أي أخ أكبر تجاه غراميات أخته • أما أنا • فلم أكن أتكلم كثيرا في حضور أسرتي • ويجب ألا أوجه اليه أي كلام سوى : « نعم » عندما أريد ان أبلغه رسالة من طرفهم • فأنا الذي على ان أخبره اننا يجب ان نذهب عند المنبع • كي نشرب ونرقص • فيتصرف كأنه لم يسمع • ولأنني يجب الا أراجع آراء أخي الأكبر • ويجب الا أكرر ما قلته فانني أسحب سؤالي • فتكرار السؤال شيء خاطيء • واستعطف رضاه فيرد ، أخيرا ، على بصوت خفيض ، كمن يريد طلبا خاصا • يقول انه يجب ان ينفرد بي لحظة • يردد هذا كأنه يتوسل • هنا يجب ان أتظاهر انني لا أسمعه جيدا • وكأنه يريد أن يتهم أحدا • وان يتغاضى عن سلوك أخي الأكبر • وهنا يجب الا أرد عليه فيستمر في الكلام ويقول : أمك متعبة ، انظري اليها • فأمي تصاب بالنعاس بعد العشاء الصيني

الثقيل فى شولن · فلا أرد عليه · وأسمع أخى الآكبر يقول بعبارة قصـــيرة ، قاسية ومحددة ، ان أمى تقول عنه انه واحد من ثلاثة أبناء · وانه يتكلم بلباقة · تردد جملتها ويسمع أخى · ويتوقف كل شيء · وأعرف الخوف من حبيبى ، ومن أخى الصغير · فلا يتردد ونذهب جميعها الى النبع · وتذهب أمى معنا عند النبع · وهناك عند النبع ، تنام ·

وفى حضور أخى الآكبر ، يكف عن ان يكون حبيبى ، لا يكف عن التواجد ، لكنه لا يفعل شيئا ازاء فتاته · التى تطيع رغبة أخيها الآكبر · الذى يتجاهل ، بدوره ، حبيبها · وفى كل مرة يكونان معا يتبادلان النظر ، فأنا لا أستطيع ان أتحمل رؤيتهما · فحبيبى يتم تجاهله تماما ، هذا جسده النحيل · هذا الضعف الذى ينقلنى الى عالم المتعة · وتبدو أمام أخى بشائر فضيحة خفية ، وسبب لجلب العار عليه ان يخفيه · فلا أستطيع أن أناضل ضد أوامر أخى الصامتة · يمكن ان أفعل ذلك فيما يتعلق بأخى الأصغر · وعندما يرتبط الأمر بحبيبى فلا أستطيع شيئا ضد نفسى · فالكلام عنه يجعلنى أكشف الوجه الخبيث لأخى · وأحس كأن شخصا ينظر الى من الجانب الآخر · وان عينيه تفكران فى شيء آخر · فى فكيه اللذين تصطكان خفيفا ولكن من السهل رؤيتهما يبدوان وكأنهما ساخطان يعانيان وكأن عليهما حكما يجب تحمله · هذا الامتهان فقط ، من أجل ان نتناول وجبة جيدة فى مطعم فخم · أما الأمر الطبيعى فى كل هذا · فهو ان الذكريات تكشف عن ليل صاف فى أغواره تنطلق صرخة حادة يطلقها طفل ·

وعند النبع أيضا يكف الجميع عن الكلام ·

ويطلب الجميع شراب مارتل برّيه · سرعان ما يتجرعه أخواى ثم يطلبان المزيد فتقوم أمى ، وأنا ، باعطائهما شرابنا · ويصاب

أخواى بالثمالة • ومهما كان الأمر فانهما لا يبادلانه الحديث • ولكنهما يعملان على تجريم ما نفعله • خاصة الأخ الأصغر • فهو يشكو دائما أن المكان كئيب • وانه ليس فيه سقاقيات • وان المتنزهين عند النبع قليلون طيلة الأسبوع • وأرقص مع أخى الأصغر • أما مع حبيبى فيجب الا أرقص • لم أرقص قط مع أخى الأكبر • فأنا ممنوعة دائما من ارتكاب أى خطأ يشكل خطرا • فهذا تصرف سىء يتفق عليه الجميع • لأنه يجب ، فى عرف الأخ الأصغر • الا تتماس أجسادنا •

وفى هذه الأثناء يشعر كل واحد منا أن وجهينا يكادان أن يقتربا من بعضهما •

حدثنى الرجل الصينى القادم من شولن وهو يكاد أن يبكى قائلا : ماذا فعلت لهم ؟ أخبرته أنه يجب الا يقلق ، فهم هكذا دوما • معنا أيضا ، فى كل وقائع حياتنا اليومية •

شرحت له ذلك عندما التقينا ، مرة أخرى ، فى مسكنه • حدثته عن عنف أخى الأكبر ، البارد ، المهين وأخبرته عن كل ما جرى لنا وأصابنا ، فقد بدا كأنه سيقتله • وان يمحو له حياته • بل هو أبعد من ذلك • انه يحتقره ، ويتصيد له الأمور ، ويتعمد أن يجعله يعانى • حدثته الا يخاف • والا يخاطر بشىء • لأن الشخص الوحيد الذى يخشى أخاه الأكبر ، أمام كل هذه الأشياء الجادة التى تبعث على الخجل هو : أنا •

لم يقل أحد منهم : صباح الخير • أو مساء الخير • أو عيد سعيد • أبدا • لم يردد أحد كلمة شكر • ولا كلمة • فلا حاجة لهم فى الكلام • ويبقى كل شىء صامتا • كأنها أسرة من حجارة • تحولت دون أى سبب • يحاولون قتلنا كل مرة • ان يقتلونا • ليس فقط لأنهم لا يتكلمون • ولكن أيضا لأنهم لا يتبادلون النظرات •

حتى فى لحظة اللقاء · فانهم لا يتبادلون النظرات · النظرة الوحيدة هى حركة فضول ازاء ما يحدث · نظرة مليئة بالازدراء · أما هى فترى أنه لا توجد فى الدنيا نظرة تعادل نظرتها اليه · حتى لو كان فى نظرهم شخص غير محترم · حتى لو الغيت كلمة « حوار » فيما بينهم ، وكأنهم اتفقوا ان أفضل شىء هو تجنب العار بكبرياء · اتفقت المجموعة التى تشكل أسرة واحدة · واصابتها حالة كراهية تخف حدتها تدريجيا · أنها تشكل ، معا ، حالة من العار يتنافى مع مبدأ ان نعيش حياتنا · شىء ما يرسخ فينا من أعماق التاريخ · وهو تاريخ ثلاثة أبناء من هذه المرأة ذات القلب الأبيض : أمى التى اغتالها المجتمع · نحن من هذا المجتمع الذى أصاب أمى بحالة يأس · وهذا هو السبب الذى جعل أمنا أكثر حبا · وأكثر ثقة · وان نكره الحياة · ونكره أنفسنا ·

لم تلحظ أمنا ما أصبحنا عليه ابتداء من هذا المشهد اليائس · أتكلم دائما عن غلمان · وأولاد · ولكن هل هذا أمر متوقع · فكيف استطاعت أن تسكت ذلك الذى أصبح حكايتها نفسها ؟ هل تكذب وجهها وعينيها وصوتها ؟ وحبها ؟ يمكنها أن تموت ، وأن تنتحر · فتشتت تلك المجموعة الميتة · وتجعل ابنها الأكبر ينفصل عن أخويه الصغيرين ، لكنها لم تفعل · فهى غير حريصة على ذلك · وهى تعارضه وغير مسئولة عنه · وهى كل هذا مجتمعا · لقد عاشت · وأحببناها ثلاثتنا ، الى أبعد درجات الحب · ولنفس هذا السبب لم تستطع ، ولم يمكنها ، أن تسكت · وان تخبىء وتكذب شيئا بشأن الاختلافات التى تجمعنا نحن الثلاثة ·

استغرق هذا وقتا طويلا · استغرق سبع سنوات ، بدأ عندما كنت فى العاشرة ثم أصبحت فى الثانية عشرة · ثم ثلاث عشرة سنة · أربع عشرة ، خمسة عشر عاما ، ثم ستة عشر ، وسبعة عشر عاما ·

استغرق هذا وقتا طويلا • سبع سنوات • ثم تخلى الأمل أخيرا • وهجرنا • هجر أيضا كافة المحاولات ضد بقائه أمام المحيط. وان يبقى تحت ظلال الشرفة • حيث كنا نتطلع الى جبل سيام . ذلك الجبل الذى مما يبدو بشعا وسط أشعة الشمس • أسود تقريبا • وها هى الأم أخيرا تبدو هادئة وناضجة • أما نحن ، فأطفال أبطال يائسون •

مات الأخ الأصغر فى شهر ديسمبر عام ١٩٤٢ أثناء الاحتلال اليابانى • تركت سايجون بعد حصولى على شهادتى الثانية فى عام ١٩٣١ • لم يكتب لى سوى مرة واحدة طوال عشر سنوات • دون أن أعرف لذلك سببا • وكأن الخطاب متفق عليه • فهو معاد الصياغة • وبلا أخطاء • ومصحح • أخبرنى أنه على ما يرام ، وان الأمور تسير طبيعية فى المدرسة • كان خطابا طويلا من صفحتين كاملتين • عرفت خطه الطفولى • أخبرنى أيضا أن لديه شقة وسيارة • وحدثنى عن ماركتها • وانه عاد لممارسة لعبة التنس • وانه بخير وكل شىء يسير طبيعيا • وانه يقبلنى ، ويحبنى بشدة لم يتكلم عن الحرب • ولا عن أخى الأكبر •

أتكلم دائما عن أخوى كأنهما كائن واحد • مثلما صنعتهما أمنا • فأقول « أخوى » وهى تسمية تمارسها الأم خارج نطاق الأسرة • فتقول لى « ولدى » تتكلم دائما بحماس عن ولديها باعتزاز شديد • وفى الخارج لا تقوم بتحديدهما • ولا تقول ان الولد الأكبر أقوى من الثانى • تقول فقط أنه أقوى أخوته مثلما يفعل مزارعو الشمال • كانت فخورة بقوة ولديها وكأنهما أخواها ; وكأن ابنها يحتقر الضعفاء • مثل حبيبى القادم من شولن كما قالت لأخى الأكبر • لم أكتب له هذه الكلمات • انها كلمات أصبحت أشبه بالجثث العفنة الموجودة فى الصحارى • أقول « أخوى » لأننى هكذا

استعذب نطقها • وقد ظللت أفعل ذلك من ناحية أخرى ، بعد ان كبر أخى الأصغر وأصبح شهيدا •

لم تكن أسرتنا تشهد أى احتفال ، حتى فى أعياد رأس السنة • ولم يكن لدينا أى مناديل مطرزة • ولا أزهار • أيضا ولا نقوش • أو موتى نذكرهم فى مناسبات • كان لدينا شىء واحد • أن أخى الأكبر أصبح قاتلا • أما الأخ الأصغر فقد مات من قبل أخيه الأكبر • أما أنا فقد رحلت وخلعت نفسى عنهما • حتى موته ، فان أخى الأكبر قد ناله وحده •

فى تلك الفترة أصاب أمى جنون من شولن • ومن الصورة • ومن العاشق • لم نعرف بالضبط ماذا حدث فى شولن • ولكننى كنت أراها ترقبنى • وكأنها تشك فى شىء ما • كانت تعرف ابنتها • هذه الطفلة ، تتحرك حول هذه الطفلة ، منذ بعض الوقت • يبدو عليها شىء غريب ، وكأنها تتحشم من أجل جذب الانتباه • ويصبح كلامها أكثر بطئا من المعتاد • وتغدو أكثر جدية من كل شىء يسبب لها التوهان • فتغيرت نظرتها • وأصبحت الفتاة نسخة من أمها ، من بؤس أمها • وكأنها حاضرة لأعمالها • ويظهر الرعب فجأة فى حياة أمى • لقد انزلقت ابنتها ، بسرعة ، ناحية الخطر • لذا فهى لن تتزوج أبدا • ولن تجرؤ على الظهور أمام الناس • لقد جردتها ابنتها من الشرف • فأصبحت وحيدة ، ضائعة • وعندما تندلع المشاكل تلقى أمى بنفسها على • ثم تحبسنى فى الغرفة • وتكيل لى اللكمات بيديها • ثم تصفعنى • وتجرنى من ملابسى • وتقترب منى • وتشم جسدى • وتصرخ • وأنها ستطردنى من البيت وأنها تأمل ان ترانى ميتة • وأن أحدا لن يرغبنى • وتبكى وهى تطلب كل ما يمكنها ان تفعله فى هذه المناسبة • خاصة ان الخروج من المنزل أصبح يصيب المكان أكثر بالعفن •

ويقف الأخ الأكبر وراء جدران الغرفة المغلقة ·

ويرد الأخ على أمه · ويقول لها انها على حق فى ان تضرب الطفلة · ويصبح صوته ملبدا · وحميما وعميقا · ويقول لها انه يجب ان يعرف الحقيقة مهما كان الثمن · وعليه ان يعرف كى يمنع هذه الصغيرة الا تضيع ، وكى يمنع أمى من ان تصاب باليأس · فتضرب الأم بكل قوتها · بينما يصرخ الأخ الأصغر لأمه ان يتركها فى حالها · ويذهب الى الحديقة · ويختفى · يخاف ان تقتلنى أمه · خائف · خائف دائما من هذا المجهول ، من أخى الأكبر · ثم يهدأ · بكت أمى على خراب حياتها · وعلى طفلتها · بكيت معها · وكذبت حين أقسمت بحياتى ان شيئا لم يحدث لى · لا شىء سوى قبلة · قلت : كيف تريدين أن أتصرف ؟ كيف تريدين أن أفعل مع حبيبى انه شىء أكثر قبحا وسخافة · أعرف أن أخى يلتصق بالباب وينصت · ويعرف ما تفعله أمى · يعرف أن الصغيرة تضرب · ويريد أن يستمر الوضع هكذا · حتى لو اقترب الأمر من حد الخطر · فأمى لا تريد أن تبلغ هذا الأمر الى أخى الأكبر الذى سيمتلىء بالغضب والثورة ·

كنا فى تلك الآونة صغار السن ، وكانت تدور مشاحنات بين أخوى ، بصفة دائمة · هناك احتجاج باد · يبدو فى كلاسيكية أخى الأكبر الذى يقول للأصغر : اخرج من هنا · وعلى التو يصيح : اضرب فيتشاحنان دون ان يتبادلا كلمة واحدة نسمع فقط لهاثهما · وأنينهما · وصوت ضرباتهما المكتوم · وكالعادة فان أمى تصاحب هذه المواقف بمجموعة من الصراخات المدوية ·

انهما مدانان لنفس المنبع من الغضب · هذا الغضب الأسود · الذى لا يعرفه الاخوة ولا الأخوات أو الأمهات · فالأخ الأكبر يعانى أنه لم يمارس شره بحرية · وانه لم يتسلط بهذا الشر · ليس هنا

فقط . ولكن فى كل مكان . وفى مثل هذا المشهد من الرعب البشع يمتثل الأخ الأصغر دوما لأخيه الأكبر .

وعندما يتشاجران نشعر بخوف متساو من ان يقتل احدهما الآخر . فتقول الأم انهما كانا دائمى الشجار . وانهما لم يلعبا قط معا . ولم يتبادلا الكلام أبدا . وأن الشىء الوحيد المشترك بينهما هو أمهما ، وبصفة خاصة هذه الأخت الصغيرة . ولا شىء سوى رابطة الدم .

اعتقد أن أمى كانت تنادى على ابنها الصغير « بطفلى » .. كانت تسميه أحيانا بهذا الاسم . أما عن ولديها الآخرين فتقول « الصغيرين » . ولم نكن نتكلم عن كل هذا فى خارج المنزل . وقد تعلمنا ان تسكتنا عن أن نطلب أساسيات حياتنا : وتلك هى المأساة . ثم عن كل ما يتبقى لنا . أهل الثقة القدامى ، وتبدو الكلمة نشازا ، انهم طعامنا اليومى ، ولقاءاتنا فى خارج المكاتب . فى شوارع سايجون أولا ثم فى السفن الراسية . والقطارات ، ثم فى كل مكان .

استولى هذا ، فجأة ، على أمى . وخاصة فى فصل الجفاف . وغسلت البيت بأكمله . وكى تنظفه . قالت ان هـذا بدافـع التطهير . ثم تشعر بالانتعاش . فقد بنى البيت فوق أرض لبنة . تعزلها عن الحديقة . والثعابين ، والعقارب ، ومن النمل الأحمر . وفيضان نهر الميكونج الذى يحدث عندما تهب الزوابع . وحيث تنمو الحشائش الطويلة بارتفاع يصل الى أسطح المنازل مما يمكن غسل البيوت بجرادل كبيرة من المياه . أو الاستحمام بداخلها كأنها حديقة . وفى الداخل . توضع المقاعد فوق الموائد . أما المنزل فقد ارتوى . وغرق البيانو الموجود بالقـاعة الصغيرة . فى المياه . وانسالت المياه فوق الدرابزين . زاحفة نحو البهو والمطبخ بدا الخدم

سعداء • كانوا معا يرشون المياه ثم يغسلون الأرض بالصابون الذى اشتريناه من مارسيليا والجميع حفاة الأقدام • والأم أيضا • الأم تضحك : ليس لدى الأم ما تقوله ضد أى شيء • فالمنزل بكامله معطر • وتنبعث من الأرض رائحة ذكية ندية بعد العاصفة • رائحة تبعث على الجنون من الفرحة خاصة عندما تختلط بالروائح الأخرى • رائحة صابون مارسيليا رائحة النقاء • والبهجة • والنصاعة والبياض • ورائحة أمنا ، الطهارة والمهابة هى أمنا • ينزل الماء حتى الممرات • وتأتى أسرات الخدم • وزوار الخدم أيضا • وأطفال المنزل المجاور من البيض • وتشعر الأم بالسعادة لهذا النظام • ربما ان الأم تشعر ، أحيانا ، بالسعادة • فى زمن النسيان • هو زمن الغسيل الذى يمكن ان يجلب السعادة لأمى ، فتذهب الى الصالة ، وتجلس أمام البيانو وتعزف المقطوعات التى تحفظها عن ظهر قلب • والتى تعلمتها فى المدرسة الابتدائية • وتغنى وأحيانا تعزف وهى تضحك • ثم تقوم وترقص وهى تغنى • ويفكر كل واحد ، والأم أيضا ، يمكنهم ان يكونوا سعداء فى هذا المنزل القذر ، الذى تحول ، فجأة ، الى بركة • وحقل على شاطىء النهر •

هاهما الشابان الصغيران ، الفتاة الصغيرة ، والأخ الأصغر هو أول من يتذكر • يتوقفان فجأة من الضحك ، ويسيران ناحية الحديقة حتى يأتى الليل •

فى هذه اللحظة التى أكتب فيها ، أذكر أن أخى الأكبر لم يكن فى فنلونج عندما نغسل المنزل بالمياه الكثيرة • كان عند الوصى • قس قرية لوت وجارون •

قد يصيبه الضحك أحيانا • ولكن أبدا • لم يضحك مثلنا أو أكثر منا • وقد نسيت شيئا • نسيت أن أقول اننا كنا أطفالا ضحوكين • أنا وأخى الأصغر كنا ضاحكين حتى النفس الأخير من حياتنا ••

أرى الحرب تحت نفس ألوان طفـولتى · امتزج زمن الحرب بنفوذ أخى الأكبر ، وهذا ، بلا شك ، لأنه فى أثناء الحرب مات أخى الأصغر بداء القلب ، كما قلت مسبقا · لقد امتثل أخى الأكبر وهاج، كما اعتقد جيدا ، ولم يعد يره ثانيا · لم يره قط أثناء الحرب · وهكذا ، لم يكن يمهنى كثيرا ان أعرف هل هو حى أم ميت · فقد كنت أرى الحرب مثلما يراها ، منتشرة فى كل مكان ، فى كل الأرجاء · كان يسرق ، ويسجن ، فى كل مكان هناك بكل مزيج · كأنه حاضر فى الجسد ، وعلى البال · فى الأمس · وفى النوم · فى كافة أوقاته · يصبح فريسة للاحساس الشمل للسيطرة على أرض جسد طفلة · جسد أقل قوة · كأنه شعب مقهور · كل هذا لأن الشر كان هناك ، وأيضا عند الأبواب ·· قريبا من الجلد ·

عاودنا الذهاب الى شقته · نحن الاثنين ولم نكف عن الحب ·

لم أكن أعود الى البنسيون أحيانا · فأنام على مقربة منه · لا أريد أن أنام بين ذراعيــه · فى دفئــه · ولكننى أنام فى نفس الغرفة · ونفس السرير · وأشعر أحيانا بافتقاد المدرسة · نذهب الى المدينة ليلا لنتناول طعامنا · يفتح الدش · انه يقدس ذلك · يجففنى · رغم كل شىء · فأنا المفضلة فى حياته · يعيش فى فزع أن أقابل رجلا آخر · أما أنا فلم أكن أخاف من شىء كهذا قط · جرب خوفا آخر · ليس لأننى بيضاء ، ولكن لأننى صغيرة السن · صغيرة السن لدرجة يمكن أن تؤدى به الى السجن اذا تم اكتشاف حكايتنا · طلب منى أن نستمر فى الكذب على أمى ، وخاصة أخى الأكبر ، والا أخبر أحدا بشىء · واستمررت فى الكذب · وضحكت من خوفه · قلت له اننا بالغو الفقر ، مما قد يدفع أمى أيضا ان تلجأ الى القضاء · ومن ناحية أخرى فالقضايا التى دخلت فيها قد خسرتها · وخاصة التى رفعتها ضد مصلحة المساحة وضد المديرين · وضد المحافظين والقانون ، لم تعرف ماذا تفعل لهم · احتفظت

بهدوئها وانتظرت • وظلت تنتظر ، لم تستطع شيئا • صرخت ولعنت حظهـا • وقالت انها يجب ألا تكون كذلك • وكانت على شفا حفرة من الاحساس بالخوف •

كانت ماری کلود كاربنتر أمريكية • وكانت ، كما أتذكر وأعتقد ، من بوسطن • وكانت عيناها وضائتين للغاية • أزرق رمادی • فی عام ١٩٤٣ • كانت ماری كلود كاربنتر شقراء • رغم انها على وشك الذبول • وجميلة كما أعتقد • وذات ابتسامة خفيفة سرعان ما تختفى وتذوب فی الضوء لها صوت سرعان ما يرتد صداه • خفيض ونشاز فی حدته • كانت فی الخامسة والأربعين • أو ما شبه • كانت تسكن الشقة رقم ستة عشرة • على مقربة من « الما » • كانت فی آخر شقة • فی أكثر الشقق اتساعا فی عمارة ، تطل على نهر ألسين • تذهب لتناول العشاء عندها فی الشتاء • وللغذاء فی الصيف • كانت الوجبـات مجهزة عند أحسن مطاعم باريس • كانت شهية دوما • ولكنها ، بالتقريب ، غير كافية • لم نر مثيلتها سوى فی منزلها • فلا يوجد لها مثيل فی أی مكان آخر • كان هناك أحيانا ضيوف • ودائما هناك واحد أو اثنان أو ثلاثة من الأدباء • جاءوا مرة واحدة • ولم نرهم بعد ذلك قط • لم أعرف أين تقابلت معهم • ولا كيف تعرفت عليهم أو لماذا دعتهم • لم أسمعها تتكلم عن أی منهم ولم نسمعها تتكلم عن أی من أعمالهم • فتناول الطعام يستغرق بعض الوقت • تتكلم طويلا عن الحرب • وعن معركة ستالينجراد • حدث ذلك فی نهاية شتاء عام ١٩٤٢ •

كانت ماری كلود كاربنتر كثيرة الانصات • تستمع كثيرا وتتكلم قليلا • وتبدو مندهشة دوما من الأحداث التی تفوتها • وتضحك بسرعة شديدة فی نهاية الوجبة • وتعتذر ان عليها أن تذهب بسرعة فلديها ما تفعله ، كما تقول . ولم تقل شيئا عم تفعله . وعندما يكون العدد كافيا . تبقى هناك ساعة أو ساعتين بعد ذهابها . تقول : ابقوا

على راحتكم • وفى غيابها لا يتكلم أحد عنها • فكما أعتقد أن أحدا لا يمكنه ان يتكلم عنها • لأن أحدا لا يعرفها • تذهب وتعود دائما وقد ارتسم على وجهها نفس الانطباعات كأنها تحس بنوع من الكابوس الأبيض • تعود وكأنها قضت بضع ساعات مع قوم غرباء • فى وجود ضيوفه يمرون بنفس الحالة . لا تعرفهم بالمرة • يعيشون لحظاتهم بلا غد • وليست لديهم أى دوافع انسانية • وكأنها اجتازت الحاجز الثالث ، كأنها قامت برحلة فى قطار • أو تنتظر فى عيادة طبيب أو فى فندق أو مطار • فى الشتاء • نتناول غذائنا فى شرفة كبيرة تطل على نهر السين ونحتسى القهوة فى الحديقة التى تشغل سقيفة العمارة • كان هناك حمام سباحة • لا أحد يستحم فيه • يطل على باريس بطريقها الخالية ، والنهر والشوارع • والأزقة خاوية وزهور التقلايا ، أتطلع الى مارى كلود كاربنتر كثيرا • طيلة كل الوقت • لم تبد اهتماما بذلك • لكننى لم أستطع أن أمنع نفسى عن هذا • أنظر اليها كى أجد مارى كلود كاربنتر • لماذا تتميز أكثر من الآخرين ؟ لماذا اختارت ان تكون بعيدة عن بوسطن ؟• ولماذا هى امرأة ثرية ؟ ولماذا لا يعرف أحد عنها شيئا الى هذا الحد ؟ لا شىء • بل ولماذا هذه الاحتفالات كأنها شىء جاد ، لماذا ؟ لماذا تبدو عيناها بالغة الشرور الى أبعد أعماق حدود البصر • وكأنها جزء من الموت • لماذا ؟ مارى كلود كاربنتر • لماذا كل هذه الأثواب التى تريديها وهى ، بشكل عام ، تبدو وكأنها غير مخصصة لها • وكأنها مغطاة بجسد آخر أثواب محايدة ، جامدة • فاتحة الألوان ، بيضاء كأنها الصيف فى قلب الشتاء •

هناك أيضا بيتى فرنانديز ، التى تتمثل فى ذاكرة الناس الأقل انتاجا القائمين فى ركن الضياء اللامعة التى تنبعث من النساء . بيتى فرنانديز هى أيضا امرأة غريبة • غريبة أيضا فى نطق اسمها • ها هى تسير فى شوارع باريس ، عوراء ، ضعيفة البصر • تقوم بتضييق عينيها كى تعرف أن كل شىء يسير على

مايرام • تميل باشارة خفيفة : صــباح الخير • هل كل شيء
على مايرام ؟ ماتت منذ أمد طويل ، ربما منذ ثلاثين عاما • اذكـر
تكريمها • لقد مر وقت طويل ولم أنس • فلا شيء فيها الا ومسني،
كل ما تتسم به من سمات • لاتهتم بالظروف ولا بالعصر ، ولا البرد،
أو الجوع • ولا بهزيمة المانيا • ولا التغلغل فى أعماق الجريمة •
تسير فى الشارع كأنها تجتاز التاريخ • فهذه الأشــياء ، هذه
الأشياء مرعبة ، فهنا أيضا العيون وضاءة والثوب وردى وقديم •
وملىء بالأتربة • يلمع شعرها الأسود فى شمس النهار • رقيقة ،
وطويلة وكأنها مرسومة بالحبر الصينى • تبــدو عليها المهابة •
يتوقف الناس وينظرون اليها بدهشــة • يتطلعون الى مهــابة هذه
المرأة التى تمشى دون أن تلتفت حولها • امرأة سامية لاتعرف قط
من أين جاءت • ثم نتساءل انها لا يمكن أن تأتى سوى من هذه البقعة
من الأرض • فهى جميلة تؤثر فيمن تحدثه • ترتدى أزياء مطرزة
على النمط الأوربى القديم • أما باقى الأنسجة فانها مقصبة بخيوط
حريرية • ملابس قديمة انتهت موضتها • كأنها مصنوعة من ستائر
قديمة • بقايا أشياء • قطع أثرية • قصاصات بالية من عنديات
الحائكين الكبار • جلود تعالب قديمة مقروضة • قناديس قديمة •
ورغم ذلك يبدو جمالها مميزا • كانت سريعــة التأثر بالبرد •
تبدو وكأنها قادمة من منفى • وان لاشيء يستأهلهــا • ترتدى
أشياء واسعة عليها • تبدو جميلة • تسير كأنها ترفل • بالغــة
الرقة • لاتحمل حقيبة فى يدها • ومع ذلك تبدو جميلة • لقــد
صنعت على هذا المنوال • برأسها وجسدها • فكل شيء يمســها
يشارك على التو ، ودائما ، فى هذا الجمال •

استقبلت بيتى فرنانديز • كان يمتلك مطعم « جور » حيث
كنا نذهب أحيــانا ، أنه نفس المكان الذى كان يذهب اليــه
دريو لاروشيل • كاتب يعانى من الكبرياء بشكل ظاهر • يتكلم

قليلا حتى لايتنازل عن كبريائه • لصوته عمق مزدوج • بلغـــة كأنها مترجمة • يتكلم بصعوبة • ربما هنـــاك فى براشـــيلاش أيضـــا • لا أتذكر تفاصيل ذلك جيدا • أسفت على هذا كثيرا • لم يأت سارتر قط الى هناك • جاء أيضا شعراء من مونبارناس لكننى لم أعرف اسم أى منهم • لم يكن هناك ألمان • ولم نتحدث فى السياسة • كنا نتكلم عن الأدب • فيتحدث رامون فرنانديز عن بلزاك • ونسمعه يتحدث حتى ساعة متأخرة من الليل • يتكلم عن معرفة • لقد نسيت الشكل الذى كان يبدو عليه • لكنه كان يضن بمعلوماته • وأيضا بآرائه • تكلم عن بلزاك كأنه هو نفسه • وكأنه جرب يوما أن يكون بلزاك • رامون فرنانديز • كانت لديه كنوز ثمينة فى المعرفة • بطريقة تبدو ضرورية وواضحة فى أن يخـدم المعرفة ودون أن يجعلك تحس بضروريتها وثقلهـا • انه أحد الرجال الأنقياء • كما نبدو وكأننـــا فى عيد حين نلتقى فى الشـــارع ، أو فى المقهى ، كان سعيدا لرؤيتى • يحييني بامتنان ويردد : صباح الخير • هل أنت على مايرام ؟ ينطقهـا باللغـــة الانجليزية ، بلا فواصل ، وبضحكة رنانة •• وأثناء الضحكات يلق نكات حول الحرب ، تعبر عن معاناته المميزة التى تنسال منه • فالمقاومة عنده مثل حبات البن ، والجوع أشبه بالبرد • والشهيد انسان جوعان • أما بيتى فرنانديز فلا تتكلم ســـوى عن الناس الذين تلمحهم فى الشارع أو عمن تعرفهم : كيف هم يسيرون ؟ وعن أشياء لاتزال معروضة فى واجهـات المحلات • وعن توزيع الكميات الاضـــافية من الألبـان • والسمك والمحاليل المسكنة لمن تنقصهم • وأيضا عن البرد والجوع • كانت تتحدث دوما عن تطبيق الوجودية • تبقى هناك محاطة بمحبة خاصة • بالغـــة الشاعرية وبالغـــة الرقة ازاء رجـال المقاومة • وآل فرنانديز • وأنا • وبعد عامين من الحرب • أصبحت عضوا فى الحزب الاشتراكى

الفرنسى • المعادلة مطلقة • انها نفس الشيء ونفس الحساسية ونفس الجاذبية • ونفس الضعف والهشاشة • فلنقل نفس المعتقدات التى تدفع للايمان بالحل السياسى للمشاكل الشخصية • لاتزال بيتى فرنانديز • تتطلع الى الشوارع الخالية من أثر الاحتلال الألمانى • تنظر الى باريس • وميادين طيور القتلايا المليئة بالزهور مثل هذه المرأة الأخرى ، مارى كلود كاربنتر • التى كانت تقيم ولائمها فى نفس الفترة •

صحبها من البنسيون فى سيارته الليموزين السوداء • ثم توقف قليلا قل أن يدخلا حتى يطمئن أن أحدا لا يراهما • وان الليل قد حل • نزلت وجرت • ولم تلتفت اليه • وما أن اجتازت البوابة حتى لاحظت ان الفناء الكبير الواسع مضاء أيضا • وبمجرد أن عبرت المر حتى رأت أمها تنتظرها • بدا عليها القلق، والحمية ، دون أن تبتسم ، سألتها : أين كنت ؟ ردت : لم أستطع النوم • لم تقل لماذا ولم تطلب هيلين لاجونيل منها ذلك • خلف القبعة الوردية وفكت جدائلها الليلية • قالت هيلين انهم خابروها فى الهاتف انها لن تذهب بعد ذلك الى المدرسة • وهكذا عرفت ، أنه يجب عليها ان تخضع للحراسة العامة فى البنسيون ، هناك الكثير من البنات مثلها • جميعهن من البيض • هناك مصابيح كبيرة معلقة فى الأشجار • وبعض صالات الدراسة لاتزال مضاءة كذلك • هناك تلميذات لازلن يعملن • وأخريات يبقين فى الفصل من آجل الثرثرة • أو يلعبن الكوتشينة • أو يقمن بالغناء • لاتوجد مواعيد نوم للتلميذات فالجو حار وكأنه نهار • فيقضين الليل حسبما يشئن • وكما يريدن البنات من الحراس • فنحن البيضاوات الوحيدات من بنسيون الدولة • هناك الكثير من الملونات • ترك أغلبهن آباءهن ، فهو اما جندي أو بحار أو موظف صغير فى الجمرك أو البريد أو الخدمات العامة • جاء أغلبهن من

مجلس المساعدات الشعبية • هناك أيضا بعض الخلاسات تعتقد هيلين لاجوئيل ان الحكومة الفرنسية تتولى تربيتهن كى تجعل منهن ممرضات فى المستشفيات • أو حارسات على اليتامى • تؤمن هيلين لاجونيل أنهم سوف يرسلونها أيضا لتمريض مرضى الكوليرا أو الطاعون • هذا ما تؤمن به هيلين لاجونيل • وتبكى لأنها لاتريد احدى هذه الوظائف • وتتكلم دائما كى تنقذ نفسها من البنسيون •

ذهبت لأرى ملاحظة الخدمة ، امرأة شابة ملونة • تراقبنى كثيرا أنا وهيلين • وتقول :

ــ لن تذهبا الى المدرسة ولن تناما هنا هذه الليلة • نحن مضطرون أن نخبر أميكما • قلت لها اننى لم أفعل شيئا من ناحيتى • ولكن بدءا من هذه الليلة • ومن الآن فصاعدا • سوف أحاول أن أعود كل مساء كى أنام فى البنسيون • واننى كنت على وشك أن أخبر أمى بذلك • نظرت الحارسة الى وابتسمت •

وعاودت الكرة • وتم أخبار أمى • فجاءت لتقابل مديرة البنسيون • وطلبت منها ان تتركنى على حريتى فى هذا المساء • والا يهتموا بالساعة التى أعود فيها • ولا يجبروننى ان أذهب معهم فى نزهات يوم الأحد مع نزيلات البنسيون • وقالت : انها طفلة اعتادت على الحرية دائما • وبدون هذا فسوف تفقدنى • أنا أمها ولا أستطيع شيئا ازاء هذا • اذا أردت أن أحتفظ بها فيجب أن أتركها على حريتها • وافقت المديرة لأننى بيضاء • ومن أجل سمعة البنسيون • فوسط أغلب الملونات يجب أن تكون هناك فتيات بيضاوات • قالت أمى أيضا اننى أعمل جديا فى المدرسة طالما أننى حرة هكذا • وعما سيحدث مع ولديها المزعجين • فالأمر جسيم ودراسة الصغيرة هى الأمل الوحيد الباقى لها •

وتركتني المديرة أقيم في البنسيون وكأنه فندق ·

وبعد قليل أصبحت ارتدى في أصبعي خاتما كفتاة مخطوبة · ومع هذا لم تعلق الحارسات بملاحظة · شككن انني غير مخطوبة · ولكن الخاتم يساوى مبلغا ثمينا · ولم يشك أحد أنه من الماس الأصيل · ولم يقل أحد شيئا بسبب سحر هذا الماس الذى أهدى الى فتاة صغيرة للغاية ·

عدت قريبا من هيلين لاجونيل · تمددت فوق مقعد وبكت لأنهـا اعتقدت أنني سوف أترك البنسيون · جلست بجانبها على المقعد · ودهشت لجمال جسد هيلين لاجونيل الممـدد بجوارى · هذا الجسد الجميل · وقد انطلق سراحه · جسد هيلين لاجونيل هو أحد الأشياء الأكثر جمالا التى وهبها الله لبشر · شىء لا يقارن . هذا التوازن بين القوام والطريقة التى بها يحمل الجسد صدرها من الخـارج · كأنهمـا شيئان منفصـلان · لاشىء اكثر غرابة من هذه الاستدارة الظاهرة فى صدر ممدد · هذه الاشياء الخارجية الممدودة نحو الأيدى · أشبه بأجساد الحمالين الصغيرة أندهش أمام هذه الروعة · جسد الرجال ذوات التكوينات النحيلة . المحجور عليها . لا تبرز أبدا مثل تكوينات هيلين لاجونيل . التى لن تبقى طويلا ، ربما حسبما أتصور حتى الصـيف · هذا هو كل شىء · جاءت من أعالى الدلتـا · فابوهيلين لاجونيل موظف بريد · وجاءت اثناء السـنة الدراسية قبل بعض الوقت · خائفة وهى تجلس الى جوارك · تظل هناك دون أن تقول شيئـا · تبكى باستمرار · ذات بشرة وردية وسمراء كالجبل · عرفناها دائما · وفى كل الأطفـال ذوى الجلد الشاحب الخضرة · والحرارة الشديدة · لم تذهب هيلين لاجونيل الى مدرسة الليسية · فهى لا ترغب أن تذهب الى المدرسة · فهيلين لم تتعلم ولم تحصـل درسـا · ولم تتلق الدروس الاولية فى

البنسسيون • لكن هذا لن يفيد فى شيء • تبكى وهى تستند على جسدى • أداعب شعرها • ويديها • قلت لها اننى سأظل معها فى البنسيون لاتعرف انها بالغة الجمال • هيلين لاجونيل • لا يعرف أهلها ماذا تفعل • يعملون على تزويجها بأقصى سرعة • وجدوا كل الخاطبين الذين يريدونها • ولكن هيلين لاجونيل لا تريدهم • فهى لا تريد أن تتزوج • تريد أن تعود مع أمها • هى هيلين ل • هيلين لاجونيل • فعلت أخيرا ما تريده أمها • انها أكثر جمالا منى • ومن قبعة البهلوان التى ارتديها • والحذاء المدبب الطرف • وهى اكثر طلبا للزواج منى • هيلين لاجونيل يمكن أن تتزوج • وان ترتبط بالحياة الزوجية • لكنها تخيفها • قالت لى انها لاتعرف لماذا تخاف ولا تفهم سر ذلك فقد طلب منها أهليها ان تبقى هنا وتنتظر •

هيلين لاجونيل ، لاتعرف أيضا ما أعرفه • انها فى السابعة عشرة • مثلما كنت أحدس • ومع ذلك فهى لم تعرف قط ما أعرفه •

جسد هيلين لاجونيل ثقيل • وأيضا برىء • وبشرتها رقيقة • أشبه بقشر الفواكه • وهى لاتكاد تحس به • يبدو موهوما قليلا ، بل كثيرا • مما يعطى لهيلين لاجونيل الاحساس أن جسدها يقتلها ويثير فيها الرغبة ان تقوم وتقتل نفسها بيديها • هذه الأشكال من زهور الدقيق • تحملها دون أن تعرف أسرارها • وتكشف هذه الأشياء حتى تعجنها الأيدى وحتى تأكلها الأفواه • دون ان احتفظ بها وان تعرف شيئا عنها • ودون أن تعرف شيئا أكثر عن قوة جسدها الأسطورية • كنت أريد التهام صدر هيلين لاجونيل • مثلما يأكل صدرى فى غرفة المدينة الصينية حيث أذهب كل مساء آملة فى المعرفة • وان أغمد هذا الصدر المصنوع من زهور الدقيق البارزة فى طرفه •

لقد كهلت على رغبة هيلين لاجونيل ٠

وكهلت على الرغبة ٠

رأيتها ٠ وكان لها نفس البشرة التى يمتلكها رجل شولن ٠ هناك شيئا يشع منه شمس بريئة ٠ تقوم بتفريغ نفسها بشكل مكرر ، فى كل حركة ٠ وفى كل دمعة ٠ لكل من فشلها ٠ ومن جهالاتها ٠ هيلين لاجونيل ٠ هى المرأة التى صنعت لهذا الرجل لدرجة تكاد ان تثير فى داخلى متعة مجردة للنهاية ٠ وبالغة الحدة ٠ ومن أجل هذا الرجل الغامض من شولن ، من الصين ٠ فان هيلين لاجونيل تصبح صينية ٠

لم أنس أبدا هيلين لاجونيل ٠ ولم أنس هذا الرجل قط بعد أن رحلت وبعد أن تركته ٠ وهذا الوفاء الغامض كان يرجع الى أنا ٠

لازلت أيضا فردا فى هذه الأسرة ٠ وهناك سكنت فى منفاى أكثر من أى مكان آخر ٠ وفى جدبه وقسوته الحادة ٠ والاساءة التى أثرت فى بشكل عميق ٠ أكثر عمقا من ايمانى بنفسى ، كنت أعلم اننى سوف أكتب عن ذلك فيما بعد ٠

سوف يمسك بى هذا المكان يوما ما عندما ينصرم الحاضر ٠ وأجد نفسى فى مكان آخر ٠ تبدو لى الساعات التى أقضيها فى بيت الشابات بشولن ، وفى هذا المكان ، أشبه بضوء منعش وطازج ٠ رغم أنه مكان خانق يعبق بالموت ، مكان للعنف والألم ، واليأس ، والعار ٠ وهو أيضا مجرد مكان مثل غرفة شولن الذى يطل على الجانب الآخر من النهر ٠ دفعنى أن أتمنى اجتياز النهر يوما ٠

لم أعرف ماذا أصبحت عليه هيلين لاجونيل · واذا كانت قد ماتت · سبقتني فى الرحيل من البنسيون · قبل سفرى الى فرنسا بوقت قليل · عادت الى ولات · أذكـر أن ذلك تم بسبب الزواج · فقد كان عليها ان تستقبل وافدا جديدا من العاصمة · ربما خانتنى ذاكرتى · وأننى أخلط الأشـــياء التى حدثت لهيلين لاجونيل فيما يتعلق بهذا الرحيل الجبرى الذى دفعتها أمها اليه ·

حدثتكم ، أيضا ، عما كان عليه ، وكيف كان · كان يسرق من الخدم ، كى يذهب ليدخن الحشيش يسرق من أمنا · يفتش في الدواليب ، ويسرق كي يلعب القمار · اشترى أبى منزلا فى منطقة بين البحرين قبل ان يموت · وهو الشىء الذى كنا نمتلكه ، لكنه قامر عليه · وباعته أمي كى تسدد ديونها · ولم يكن هذا كافيا · ولم يكف أبدا · وعندما كان شابا حـاول أن يبيعنى الى أحد زبائنه في القبة · ومن أجله أرادت أمي أن تعيش أيضا من أجل أن يأكل · وان ينام في الجو الحار · وان يسمع أيضـــا شخصا يناديه باسمه · والممتلكات التى اشترتها له قريبـــا من منطقة امبواز · عشر سنوات من التوفير · وذات ليلة قامت برهن العقار · ودفعت حصتها · وكل منتجات قطع الأخشـــاب التى حدثتكم عنها · وفى ليلة أخرى سرق أمي الميتة · كان هناك شخص يفتش فى الدواليب · ويتشممها كالكلاب · كان يعـــرف كيف يجيد البحث · ويكتشف جيدا ثنايات الحشايا وخباياها · فسرق الأساور وما أشبه الكثير من المجوهرات والأطعمة وسرق من دوو ، والخدم · ومن أخي الأصغر · وسرق منى الكثير · وباعها جميعها · أما هي ، أمه ، فعقب موتها مباشرة أسرع وأحضر موثق العهود · وســط شعور الأسى بالموت · تساءلت كيف استقل بشعوره عن الموت · قال الموثق ان الوصية غير صالحة قانونيا · وانهـــا قد ميزت ابنها على كل الممتلكات · كان الاختلاف كبيرا · وأثار ضجة

فعلينا آن نعرف جميعا السبب الذى جعلنى أقبل أو أرفض . قبلت الأمر . وقمت بالتوقيع وأعلنت موافقتى . أما أخى فقد أخفض عينيه وأطلق شكره . ثم بكى . ثم تملكه الحزن لوفاة أمنا . وكأنه مخلص لها . وأثناء تحرير باريس . جاء يتابع أعماله التعاونية فى وسط باريس . لكنه لم يكن يعرف الى أين يذهب . جاء الى . لم أكن أعرف شيئا عنه . هرب من خطر . ربما أسلم نفسه للناس ، ولليهود ، وكل شيء ممكن . فهو انسان رقيق . ملىء بالحساسية دائما بعد ان يتم انتهاكه أو عندما تطلب منه خدمة . فى تلك الآونة . كان زوجى معتقلا . وكنت لطيفة معه ، فبقى ثلاثة أيام . ونسيت كل ما فعله وعندما خرجت لم أعلق شيئا . فأخذ يفتش . كنت أحتفظ بالسكر وأرز التموين من أجل عودة زوجى ، فتش ونهب . فتش أيضا فى الدولاب الصغير بحجرتى وعثر على ضالته . فأخذ كافة مدخراتنا . خمسة آلاف فرنك . ولم يترك لنا شرورق نقير . ترك الشقة على مصراعيها . عندما رأيته مرة أخرى لم أكلمه عن ذلك . فالأمر مجلبة لعار جسيم . ولم أستطع أن أتحمل الكثير . بعد الوصية المزيفة . والقصر المشيد على غرار قصور لويس الرابع عشر والذى قام ببيعه من أجل كسرة خبز . لقد زيفت عملية البيت مثلما زيفت الوصية .

وأصبح وحيدا عقب وفاة أمى . بلا أصدقاء . وهو الذى لم يكن له أصدقاء قط . كان لديه نساؤه فى بعض الأحيان من أجل « العمل » فى مونبارناس . وأحيانا نساء لايعملن . فى البداية كان هناك رجال لايدفعون . عاش فى وحدة شديدة .. وبدأ يتقدم نحو الشيخوخة . كان متشردا . وكانت أسبابه هشة . واتسع الخوف من حوله . من كافة الأنحاء . أما معنا فقد أضاع إمبراطوريته الحقيقية . لم يكن رجل سطو . كان شريد العائلة . يبحث دائما داخل الدواليب . قاتل بلا أسلحة . ودون أن يقترف اثما كبيرا .

فالمتشردون يعيشون طالما أنهم على قيد الحياة ، دون ان يتعاونوا مع أحد · ودون احساس بالتعاظم · يعيشون فى خوفهم · كان خائفا · وبعد وفاة أمى عاش وجودا غريبا فى دورات · لم يعرف سوى صبية المقهى من أجل ممارسة لعبة « النحل » والزبائن الذين يأتون من أجل مباريات البوكر فى الصالات الخلفية · بدأ يجمعهم ويشرب كثيرا · ويضرب بعينين مختنقتين · الفم جامع · ولم يحصل على شيء سوى نقود سائلة لا أكثر · وأثناء عام أقام فى مبنى صغير أجرته أمى · ظل ينام طيلة عام فوق مقعد فوتيه · سمحوا له أن يبقى هناك · وبقى مدة عام · ثم طردوه ·

وأثنــــاء هذا العـام ظل يأمـل فى معاودة شراء ممتلكاته المرهونة · فلعب القمار على قطع الأثاث ، الواحدة تلو الأخرى التى كانت أمى تمتلكها · وأيضا تماثيل بوذا البرونزية · ثم النحاس والأسرة وأخيرا الدواليب والمفارش · ولم يعد لديه شيء بعد ذلك · لم يبق له سوى سترة يضعها فوق ظهره · لا ملاءة أو غطـــاء · وأصبح أكثر وحدة · وطوال عام لم يفتح له أحد باب بيته · فكتب الى ابن عم له فى باريس ، كان يمتلك غرفة للخدم فى مالشارب · وبعد خمسين عاما حصل على أول وظيفة له · وقبض أول راتب فى حياته · حيث عين حاجبا فى شركة تأمين بحرية · وظل هناك ، على ما أعتقد ، خمسة عشر عاما ودخل المستشفى · لم يمت فيها · بل مات فى غرفته ·

لم تكن أمى تتكلم أبدا عن هذا الطفل · ولم تشك أبدا منه · ولم تتحدث عن لص الدواليب الى أحد · فقد كانت مصابة بالأمومة الى حد الهذيان · وحاولت أن تخفيها · ولم تحاول كشف نقاط ضعفها تجاه ابنها · تعمدت الا يعرف أحد ابنها ، مثلما تعرفه ، سوى الله · وهو · تردد ان هذه بذاءات صغيرة · وانها هى دائما

نفس الأم • وأنه أراد أن يؤكد أنه أذكى الأبناء الثلاثة • والأكثر « فنا » والأكثر نعومة وأيضا الأكثر حبا لدى أمه • وهذه النقطة بالتحديد لم يفهمها بشكل أفضل • رددت : لا أعرف ماذا ينتظرون من الولد • انهم لايعرفون نيته • فهو يتمتع بحنان بالغ العمق •

وعاودنا اللقاء مرة أخرى • حدثنى عن أخى الصغير المتوفى • وقال : الموت ، ياله من أمر مرعب • شىء غير محتمل • أخونا الصغير • • صغيرنا بولو • •

واستعدنا صورة فى أسرتنا ، صورة تناول الطعام فى سادك • نأكل ثلاثتنا على مائدة فى قاعة الطعام • كانا فى السابعة عشرة والثامنة عشرة • لم تكن أمنا معنا ينظر الينا ونحن نأكل : أخى الصغير وأنا • ثم وضع شوكته ولم يعد ينظر سوى الى أخى الأصغر • نظر اليه وهو يدقق فيه طويلا • ثم قال له فجأة ، وبهدوء شديد ، شيئا ما مرعبا ، كانت الجملة حول الطعام ، أخبره أنه يجب أن ينتبه • وأنه يجب ألا يأكل بينما لم يرد عليه الأخ الاصغر بشىء • فاستكمل كلامه • وذكره أن قطع اللحم الكبيرة من نصيبه ، وأنه يجب الا ينسى هذا • تساءلت : ولماذا ليس أنت ؟ فأجاب : الأمر هكذا • صحت : كم أود أن تموت • لم أستطع استكمال طعامى • ولا أخى الصغير • انتظر أن يجزؤ أخى الأصغر ويتفوه بكلمة ، كلمة واحدة • فثنى قبضتيه المتأهبتين فوق المائدة كى يلكمه فى وجهه • ولم يقل الأخ الأصغر شيئا • كان شاحبا للغاية • وتكاد أهدابه أن تبلل بالدموع •

مات فى يوم غائم • أعتقد كان فى شهر ابريل • • فى الربيع • جائنى هاتف • لا جديد • لم يقل شيئا آخر • عثر عليه ميتا • ممددا فوق الأرض فى غرفته • كان الموت فى مقدمة نهاية حكايته • من حياته التى مارسها • لقد مات بالنسبة لى قبل ذلك

بكثير . حدث ذلك عندما مات أخي الاصغر . رددت بكلمات مقهورة: كل شيء هالك .

طلبت أن يتم دفنها معه . لا أعرف ماذا يقصد . وفي أي مقبرة: . عرفت ان هناك مقبرة واحدة في منطقة اللوار . وتم دفن الاثنين في نفس المقبرة . الاثنان . فقط . وحدهما . . وكان الامر غير محتمل بالمرة .

حل المغرب في نفس الساعة من السنة . كان قصيرا ، وبالغ القبح . في موسم المطر . وطوال اسابيع لم تنقشع الغيوم . وتلتف السماء في ضباب كثيف لا يمكن لضوء القمر أن يخترقه . ففي موسم الجفاف تبدو السماء عارية ، مكشوفة بأكملها . وكانت الليالي غير القمرية ، تبدو قاتمة . وشديدة الغيوم كأنها مرسومة بشكل متواز فوق الأرض ، والمياه ، والطرق ، والجدران .

أتذكر الأيام بصعوبة . . ضوء الشمس الكامل المكسو بالالوان . كانت الليالي ، على ما أذكر ، زرقاء اللون وتبدو السماء بعيدة . وتتلبد السحب الكثيفة وكأنها تغطي كل أرجاء الكون . أما السماء بالنسبة لي فقد كانت السحب فيها أكثر لمعانا وهي تجتاز حاجز اللون الازرق . وتذوب كل الالوان داخلها مثلما كان يحدث في فنلونج . عندما كان الحزن يستبد بأمي ، كانت تركب الدراجات الخفيفة . ونذهب الى الريف لنرى ليل فصل الجفاف . كنت أشعر أنني محظوظة ، في هذه الليالي ، لأن لي مثل هذه الأم . حيث ينسال الضوء من السماء في حركة نقية شفافة وسط أعصار الصمت والسكون . وتبدو السماء زرقاء . وأننا سوف نمسك زرقتها بأيدينا . كانت السماء ترعد باستمرار وسط وميض الضوء . ويضيء الليل كل شيء . يضيء الريف بأكمله بطول شط النهر حتى أبعد حدود الرؤية . وكان لكل ليلة سمتها الخاصة .

ويمكن لكل انسان أن ينادي زمن الأبدية . أما صوت تلك الليالى فهو كنباح كلاب القرية . تنبح بشكل غامض . وتتردد النباحات من قرية الى أخرى حتى ترتفع الى أعنان السماء ، طيلة الليل .

كانت تسقط في ممرات الفناء ظلال كثيفة أشبه بلون الحبر الأسود . وكانت الحديقة مليئة بأشجار التين التى تبرق كأنها المرمر . أما المنزل فكان أثريا . وكأنه كالمقابر . ويسير أخى قريبا منى . وهو ينظر بشكل ملح نحو الباب المفتوح الذى يؤدى الى الشارع الخاوى .

وذات مرة لم يقف أمام المدرسة . كان السائق وحده فى السيارة السوداء . أخبرنى أن الأب مريض ، وان سيده الصغير قد سافر الى سادك . أما هو ، السائق ، فقد صدر اليه الأمر ان يبقى فى سايجون كى يصحبنى الى المدرسة . وأن يذهب الى البنسيون . وعاد السيد الصغير . ومن جديد جلس فى المقعد الخلفي للسيارة السوداء . وهو يدير وجهه الى الناحية الأخرى حتى لا أرى النظرات الغارقة دوما فى الخوف . تعانقنا دون أن نتبادل كلمة واحدة . تبادلنا القبلات ، ونسينا أنفسنا . تعانقنا أمام المدرسة . وفى أثناء القبلة بكى ، فالأب سوف يعيش . كان أمله الوحيد إن يذهب، طلب منه هذا . توسل اليه أن يجعله يحتفظ بى معه ، فوق جسده . أخبره ، لعله يفهم ، أن عليه أن يعيش على الأقل تجربة واحدة عاطفية مثل هذه خلال حياته الطويلة . وأنه من المستحيل أن يسمح له بأمر آخر . توسل اليه أن يتركه يعيش حياته . مرة واحدة . فى تجربة عاطفية كهذه . فى هذا الجنون . هذا الحب المجنون الذى يكنه لفتاة بيضاء صغيرة طلب منه أن يمنحه الوقت كى يحبها أكثر قبل أن يعيده إلى فرنسا . وان يتركه على سجيته ، لعام آخر . لأنه ليس من السهل عليه أن يترك هذا الحب ، فالحب

جديد للغاية . وهو في قمة عنفوانه . وهو أكثـــر قوة من أن ينفصل عنه جسنـــديا . ومع هذا فالأب يعرف ، جيدا ، أن هذا لن يفيد قط .

ردد أبوه . أنه يأمل لو رآه ميتا .

وتحممنا معا بمياه « الجراكل » الطازجة . وتعانقنا ، وبكينا لدرجة الموت . ولكن هذه المرة بمتعة لامثيل لها . ثم حدثتـــه . أخبرته ألا يندم على شيء وذكرته ما يجب عليه أن يقوله . فأنا أيضا لابد أن أرحـــل يوما ما وأنني لايمـــكن أن أتعلق من عنقي . قال ان الأمر سيان لديه . وان كل هذا ســـوف يمر .. وأخبرته آنذاك أن لى رأيى الدائم فى أبيه . وأننى أرفض أن أبقى معه . ولم أشرح الأسباب .

كان الطريق طويلا فى فنلونج . ينتهى عنده نهر الميكونج . يبدو الطريق خاويا دائما فى المساء . هذا المساء وفى كل مساء . كانت الكهرباء مقطوعة . كل شيء يبـــدأ هكذا . وما ان أركب الطريق . وما أن ينغلق الباب الخلفى . وأتابع انقطاع الكهرباء . حتى أجرى ، وأجرى وأنا خائفة من الظلام . أجرى بأكثر وأكثر سرعة . وفجأة أعتقد أننى أسمع من يجرى خلفى . وأتأكد أنه شخصا يجرى خلفى مقتفيا خطاى . يجرى ، وأستدير وأراه . انه امرأة عملاقة . بالغة النحافة . نحيفة كالموتى . تضحك وهى تجرى . حافيـــة القدمين . تجـــرى خلفى كى تلحق بى . أننى أعرفها ، فهى مجنونة مكتب البريد . مجنونة مدينـــة فنلونج . سمعت أنها تتكلم طيلة الليل . وتنـــام فى النهار . انها دائما هناك فى هذا الطريق عند الحديقة . تجـــرى وهى تصرخ بلغـــة لا أعرفها . الخوف هو كل ما أستطيعه . لعل الساعة هى الثامنة . أسمع ضحكتها المجلجلة وصيحات الفرح . بالتأكيد أنها تحب أن

تتسلى بى • لنقل ان هذا الخوف يخترق شـــجاعتى وقوتى • وكل ما أردده • أنه يمثل الذكرى لأمر أكيـــد يكمن فى داخلك تماما • وأحس أن المرأة تكاد تلمسنى • حتى ولو لمسة خفيفة ، فى يدى • أمر ،بدورى ، بحالة مضاعفة لحالة الموتى • وحالة من الجنون • واصل الى الحديقة القريبة من المنزل وأصعد درجات السلم وأخر مغشيا على عند المدخل • وطوال عشرة أيام لا أستطيع أن أحكى لأحد كل ما حدث لى •

فى فترة مبكرة من حياتى • كنت أخاف من رؤية الأشـــياء تتعاظم فيما يتعلق بأمى ، لم أسم هذه الخالة قط ، والذى أوصلها الى هذا الحال هو أنها انفصلت عن أبنائها • أعتقد أن هذا دفعنى أن أعرف ما يمكن أن يحدث لى فى اليوم التالى ، ليس لأخوى • ولكن لأن أخوى لن يعرفا كيف يحكمان على هذه الحالة •

حدث ذلك بعد عدة أشهر من انفصـــالى عنهم • حدث فى سايجون • فى وقت مبكر من المساء • كنـــا نجلس فى الشرفة الكبيرة فى المنزل الذى يطـــل على شارع تســـار • كانت دوو موجودة • نظرت الى أمى • لم أعرفها بسهولة • بدت كأنها تائهة وقد سقطت سقطة بالغة القسوة • لم أعرفها بالمرة • ظهرت هناك فجأة • قريبة منى • هناك شخص آخر يجلس مكان أمى • لم تكن أمى • ولكنها امرأة لها نفس مظهرها • لم تكن أمى أبدا • كان يبدو عليها جنون خفيف • تنظر ناحية الحديقـــة الى بقعة ما فى الحديقة • تبدو وكأنها ملفوفة تقريبا بحـــدث لم ألحظه أبدا • لايزال يرتسم عليها بعض ملامح الشباب • والنظرات السعيدة • بما بسبب تمسكها بالعفة التى اعتادت ان تحافظ عليها • كانت جميلة • تجلس دوو على مقربة منها دوما • بدت دوو وكأنهـــا لم تلحظ شيئا • لم تحس بالرعب أبدا لما رددته عليهـــا وعن

ملامحها ، وما يبدو عليها من ملامح السعادة ، وعن جمالهـــا ، جاءت من حيث تجلس نفسها على مقربة من أمي ، أعرف أن شخصا آخر ليس في نفس مكانهـــا ، ولكن بالضبط هذا الكائن البشرى الذى لم تحل محله ، لقد اختفت هوية أخـــرى ، وكنت لا أملك الوسيلة لأن أجعلها تعود ، وأن تبـــدأ فى العودة الى وعيهـــا ، لم يحدث تغيير وسط الصورة ، لقد أصبحت نصف مجنونة ، ففى وقت الصراخ تصرخ بصوت ضعيف ، ثم تحطم الزجاج ويعلو الصراخ بشكل مميت فوق الأشياء ، ثم تستعيد أمى رشدها ٠

عرفت كل اناس المدينـــة ، خاصـــة شـــحاذين الطرق ، كل شحاذى المدينة وحقول الأرز التى كانت تحيط ســـيام وساحل ميكونج ، عندما خالفتهم أحسست بالخوف الذى استبد بى من جهات عديدة ، تسافر أمى دائما الى كلكتا ، المدينة التى جاءت منها ، كانت تنام دائما فى ظل أشجار التفاح الطويلة ، فى أثناء الفسحة أجلس دائما قريبة من أمى ، تعتنى بقدميها اللتين قرصهما الدود ، ويعف عليها الذباب ٠

تجلس على مقـــربة منها فتـــاة التاريخ الصغيرة ، حملتها مسافة الفى كيلومترا : لاتأخذ منها شيئا ، بل تعطيها ، تردد : اذهبى ، تعالى ، كان لديها الكثير من الأطفال ، أما الآن فلم يعد منهم أحد ، ماتوا جميعا أو تم التخلص منهـــم ، والسبب الزكام الذى يجئ فى نهاية العمر ، لم تمت هذه المرأة التى تنام تحت أشجار التفاح الطويلة ، سوف تعيش أبد الدهر ، ستموت فى منزلها ، وهى ترتدى ثوبا من الدانتيل ، وتبكى ٠

تجلس عنـــد منحدر حقول الأرز التى تملأ الشقق ، تصرخ وتضحك ملء شدقيها ، لها ضحكة رنانة ، ضحكة توقظ الموتى ، وتوقظنى أيضا ، أشبه بضحكات الأطفال ، ظلت فى حقول البنغل

أياما وأيام . هناك أشخاص يبقى في حقول البنغل ، تتذكر أن البنغل يقدم كطعام للشحاذين . استيقظت ذات يوم قصير النهار وأخذت تمشي . ثم رحلت ، ذهبت كي تعرف السبب . اتجهت ناحية الجبل . واجتازت الغابة . سارت في الممرات التي تمتد على طول قمة سلسلة جبال سيام . حاولت ان ترى ، لعلها تشاهد الشمس الصفراء . التي تصبح خضراء على الجانب الآخر من الجبل . وسارت ثم بدأت في النزول ناحية البحر . نحو الأفق . وأوسعت من خطاها المتعجلة التي تترك فوق أرض الغابة أثرا خفيفا . ظلت تمشي وتمشي . رغم أن الغابات موبوءة بالطاعون . وشديدة الحرارة . لا أثر هناك للرياح . والبحر ملوث ، وهناك زوايا محملة بالناموس . والأطفال الميتين . والمطر المتساقط يوميا . ثم هذه الدلتا ، انها أكبر دلتا على سطح الأرض . ذات أرض سوداء . اتجهت ناحية شيتاجون ، وتركت الأرض المعبدة والغابات ، ودروب الشاي . والشمس الحمراء . وجرت في خط مستقيم نحو ملتقى الدلتا . ووصلت الى ضاحية مليئة بالحشرات الصغيرة . وجدت نفسها أمام البحر . فصرخت . ثم ضحكت من نقيق الضفادع . وبدافع السخرية شاهدت في شيتاجون سفينة ركبتها لتعبر البحر ، ود الصيادون صحبتها . فعبرت معهن الخليج البنغالى .

هكذا بدأت ، ثم عاودت من جديد ، حدث كل هذا في جنوب كلكتا .

فقدناها . ثم وجدناها مرة أخرى . عثرنا عليها نائمة خلف سفارة فرنسا في هذه المدينة . تمددت في حديقة . واحتفظت معها بمؤونة ضخمة من الأطعمة .

ظلت هناك طيلة الليل . ثم ذهبت الى منطقة جانبية عندما

أشرقت الشمس . ظلت محتفظة بروح السخرية والتهكم دوما . لم تغادر المكان . فهنا تأكل وتنام ، والليل هادىء . لذا ظلت قابعة فى حديقة الورود .

جئت يوما اليها ، كنت فى السابعة عشرة . يسمونه الحى البريطانى . وهذه هى حديقة السفارات . مليئة بالجناين والصخور الكروية . ظلت تضحك مثل ما يفعل المصابون بمرض الجذام ونحن نمشى معا على حافة نهر الجانج .

كنا فى ميناء كلكتا . وعندما أصاب العبارة عطب . قمنا بزيارة المدينة من أجل قضاء بعض الوقت . ثم عاودنا الرحيل فى مساء اليوم التالى .

عمرى خمسة عشر عاما ونصف . انتشر الخبر بسرعة فى مكتب سادك . لم ينقصنا سوى هذه الفضيحة . رددوا : « ياللعار » فالأم قد فقدت الاحساس . وهذه ليست طريقة لتربية بنت صغيرة . ياللطفلة المسكينة . نحن لانصدق . هذه القبعة لم تعد بريئة . ولا أحمر الشفاه . كل هذا لايعنى سوى شىء واحد . هو محاولة جذب الأنظار . وجلب المال لشقيقيها المتشردين. يقال انه صينى . ابن ملياردير . يسكن فى فيللا تطل على الميكونج . مبنية من السيراميك الأزرق . حتى أبوه . فبدلا من أن ينسب لأبنه الشرف الا أنه لايريد هذه الفتاة لأبنه . فهى ليست سوى ابنة لأسرة من المتشردين البيض .

ينادونها بالسيدة . جاءت من سفانخت . عليها أن تلحق بزوجها فى فنلون . الذى كان يعمل مساعدا للمدير فى سفانخت. لم يكن محبوبا بالمرة . قتلته طلقة رصاص . وانتشرت الحكاية حتى وصلت الى مكتب بريد فنلون . كان ذلك يوم رحيله من

سفانخت الى فنلون · أصابته الرصاصة في القلب · في أكبر مكان بالمكتب ، ووسط النهار · كان قد عين في فنلون بسبب علاقته بالبنات الصغيرات · وأخبر زوجته أنه قد آن الأوان لكل هذا ان يتوقف ·

حدث كل هذا في حي سيء السمعة بشولن · ففي كل مساء · تذهب هذه الداعـرة الصغيرة الى مليونير صيني قذر كي يداعب جسدها · انها لا تزال تلميذة في المدرسة حيث توجد أيضا بنات صغيرات من البيض · بنات صغيرات رياضيات يتعلمن العوم في حمام السباحة بالنادى الرياضي · وذات يــوم صــدر اليهن أمر ألا تتحدث أى منهن مع ابنة ناظرة مدرسة سادك ·

وفى الفسحة ، تنظر ناحية الشـــارع ، وتتكيء وحدها على ركيزة البهو ، لاتقول شيئا عن هذا لأمها · وتستمر الســـيارة الليموزين السوداء ، التى يملكها ذلك الصينى القادم من شولن ، في الحضور الى المدرسة · ينظرن اليها وهى تذهب · دون أن يبدين أى اعتراض أو مقاومة : فلا توجه أى واحدة منهن كلمة واحــدة اليها · بدت هذه العزلة بشكل واضح في ذاكرة سيدة فنلون · جاءت ، هناك وهى في الثامنة والثلاثين · آخر مرة رأت فيها الطفلة حــين كانت فى العاشرة · أما الآن فهى فى السادســـــة عشرة على ماتذكر ·

تجلس المرأة فى شرفة غرفتها · تتطلع الى الدروب الطويلة لنهر الميكونج · أراها عقب عودتى من سماع موعظة دينية معى أخى الصغير · توجد الغرفة وسط قصر كبير ذى شرفات مغطاة ، ويقع القصر وسط حديقة تكسوها أزهار الورد والنخيل · نفس الاختلاف يفصل بين المرأة والشابة ذات القبعة المسطحة عن موظفى مكتب البريد · حتى عندما يتطلع الاثنان ناحية فرعى النهر الطويلين

فيشعران بنفس العزلة . تشعر كل منهما أنهـا معزولة تماما . وأنها ملكة . وأن معاناتها تجيء من داخلها . كلتاهما تحس بذلك. الأمور المباحة من واقع طبيعة هذا الجسم الذى داعبه العشاق . وقتلته الأفواه . فيشعر بالجوع للمتعة لدرجة الموت . يقـلن ان المرء يموت موتا غامضا عندما يفتقد العشاق الى الحب . هذه هى حالة الرغبة حتى الموت . انه يهرب منهما . من حجرتهما . هذا الموت البالغ القوة الذى يعرفان فيه واقع المدينة الحقيقى . ومكاتب البورصة . والأماكن الرئيسية . وحفلات الاسـتقبال ، وحفلات الرقص التى تنظمها الجهات الرسمية .

جاءت هذه المرأة من أجل استعادة أجواء الحفلات الرسمية . اعتقدت انها فعلت ذلك وان زوجها شاب سفانخت قد دخل دائرة النسيان . واسـتعادت المرأة أمسياتها التى تمسكت بها لترى نفسها قادرة وجذابة لكل الناس . ومن وقت لآخر ، ومن حين وحين تخرج من وحدتها الرهيبة لتذهب الى مكاتب الأدغال الضائعة . سهول حقول الأرز حيث الخوف ، والجنون ، والحمى والنسيان .

تخرج فى المساء من المدرسة . تركب نفس السيارة اللموزين السوداء . ترتدى نفس القبعة البالية الطفوليـة . ونفس الحذاء المدبب الحافة . تذهب مع الملياردير الصينى . يضع أمامها مروحة . وبعد أن تعود الى البنسيون لايعاقبها أحد أو يضربها . أو يفسد قبعتها أو يهينها .

فى آخر الليل الذى قتل فيه ، فى فناء المكتب الكبير حيث انطفأت الأنوار . وقفت ترقص . ثم حل النهار . ثم مر النهار . وكشفت الشمس كل شىء . ولم يجرؤ أحد أن يقترب من الجثة ، الشرطة هى التى فعلت ذلك وسـط النهار . بعد وصول قارب الانقاذ من السفر . لم يعد هناك أحد . وخلا المكان تماما .

قالت أمي لمديرة البنسيون : هذا لايعني شيئا . كل هذا لا أهمية له . هل رأيت هذه الأثواب الضيقة المستعملة . وهذه القبعة الوردية . والحذاء الذهبي ؟ هل كل هـــذا على ما يرام ؟ كانت الأم تصاب بنشوة من الفرحة حين تتكلم عن أبنائهـا وعن جاذبيتهم الشديدة . بينما وقفت ملاحظات البنسيون الشابات يستمعن الي الأم بشغف . وتكلمت الأم . وأحاطهــا كل رجال المكتب . المتزوجون وغير المتزوجين يلتقون حولها . يريدون هذه الصغيرة . هذا الشيء الصغير . الذى لم تتشكل هويتـه بعـد . انظروا فهي لا تزال طفلة . كيف يقول الناس انها تجلب العار ؟ أما أنا فماذا أقول : فكيف لهذه البراءة أن تجلب أى عار ؟

وتتكلم الأم عن الفساد المكشوف وتضحك . ثم عن الفضيحه وعن هذا التهريج ، وهذه القبعة المنزوعة الأطراف ، وهذه الأناقة الشديدة لطفلة تعبر النهر . وتضحك من هذا الشيء الذى لا يقاوم اغراؤه . هنا في المستعمرات الفرنسية . اتكلم وتتحدث عن هذه البشرة البيضاء . وعن هذه الطفلة الصغيرة التى لاتزال حتى الآن ، تختفي وسط الأدغال . وتصل فجأة ، ذات يوم مهيب ، وترتكب أمرا مشينا في المدينة تحت وسمع وبصر الجميع . مع ابن الأوباش من الصينيين الأثرياء . وترى الخاتم الماسي في أصبعي مثلما تفعل الفتاة التى تعمل في البنك فتبكي .

عندما رأت الخاتم الماسي قالت بصوت خفيض : انه يذكرني بخاتم سوليتير صغير جاءني يوم خطبتي من زوجي الأول . قلت : اسمه « السيد ظلام » . ضحكنا . هذا هو اسمه . كما قالت لي . وهو أمر حقيقي خال من الهذر .

تبادلنا النظرات فترة طويلة . ثم ارتسمت عليها ابتســامة بالغة الرقة . ممزوجة بسخرية ومطبوعة بعرفان جميل عميق تجاه

أبنائها ولكل ماتنتظره منهم • أما أنا فقد كان يجب على أن أخبرها عن شولن فيما بعد •

ولم أفعل • ولم أخبرها بذلك أبدا •

وانتظرت طويلا قبل أن تكلمنى • ثم فعلت ذلك • بكثير من المودة : أتعرفين أن كل شيء قد انتهى • وانك لايمكن ، أبدا ، ان تتزوجى هنا فى المستعمرة ؟ هززت كتفى وضحكت • وقلت : يمكن أن أتزوج فى أى مكان عندما أريد • وأشارت بيدها رافضه وقالت : لا ، هنا ، هنا ، كل الناس يعرفون • هنا لا يمكنك نظرت نحوى وقالت كلمات لا تنسى : هل كنت تحبينه ؟ أجبت : أجل • كنت أثير اعجابه أنا أيضا • وهنا قالت : لقد أثرت اعجابه لأنك تستحقين ذلك •

ثم سألتنى : هل كنت تقابلينه من أجل النقود ؟ ترددت ثم قلت ان هذا كان من أجل المال • نظرت الى مليا • ولم تصدقنى وقالت : أنت تختلفين كثيرا عنى • فقد كنت أكثر منك ذكاء خاصة بالنسبة للدراسة • كنت حادة للغاية • وقد ظللت امارسها مدة طويلة • وفيما بعد فقدت مذاق المتعة •

حدث ذلك فى أحد أيام الأجازات بسادك • كانت تستند فوق مقعد طويل من أجل الاسترخاء • ومددت قدميها فوق مقعد • كانت قد تركت الباب مفتوحا حتى يهب النسيم من الصالة ، صالة الطعام • كانت فى أقصى حالات الاسترخاء • وصفاء الذهن • فجأة لاحظت ابنتها الصغيرة • فانتابتها الرغبة فى الحديث معها •

لم تكن بعيدة عن النهاية • فعما قريب عليها أن تغادر أراضى السدود والرحيل الى فرنسا • نظرت اليها وهى تغفو •

ومن وقت لآخر ، كانت أمي تتمتم : سنذهب غدا الى المصور. تشكو من أسعار المصور ومع هذا تذهب . انه يرفع دائما أسعار صور العائلات . كانت تتطلع الى الصور . ولا نتبادل النظر . فقط ننظر الى الصورتين كل منا منفصلا . ودون أى تعليق . كنا ننظر اليهما ونرى بعضنا ونرى بقية أعضاء الأسرة الواحدة مجتمعين . ونعاود الرؤية عندما كنا صغارا جدا فى الصور القديمة. ونتطلع الى الصور الحديثة . لقد اتسعت الهوة فيما بيننا . وفى مرة من المرات كانت الصور مرتبة بعناية فى الدولاب لقد التقطت أمي الصور كي يمكننا أن نرى بعضنا ولنلاحظ اذا كان الكبر قد نال منا . تنظر الينا مليا مثلما تفعل أمهات أخريات لأطفال آخرين. ونقارن الصور ببعضها . وتتكلم عن كل واحدة منها . ولا يرد عليها أحد .

لم تصور أمي أحدا سوى أبنائها . لا أحد قط غيرهم . فليست لنا صور فى فنلون . ولا فى الحديقة أو النهر . أو الطرق المستقيمة المحفوفة بأشجار التمرهندى على الساحل الفرنسى . ولا أى منزل وحتى حجراتنا فى المنزل الأبيض ذى الأسرة البيضاء ذوات الأعمدة الذهبية اللامعة ، كذلك فصول المدرسة التى بها بالونات حمراء اللون . أو الأباجورات الكتانية الخضراء . لا توجد أى صورة فى هذه الأماكن التى لاتصلح للتصوير فهى فى رأيها أماكن تعكس القبح . وتهرب منها . لقد عسكرت أمي وانتظرت ، كما قلت . وأقامت فيها . وخاصة فى فرنسا فى المناطق التى ظلت تتكلم عنها طيلة حياتها . وتحتل مكانة هامة فى نفسيتها . وغمزها ، وحزنها . بين منطقتى « كاليه » و « بين البحرين » وعندما تتوقف تعلن انها سوف تستقر فى منطقة اللوار . وان غرفتها هناك ستكون نسخة مكررة من غرفتها بسادك . تلك الغرفة المرعبة التى عليها ان تنساها .

لم تصور الأماكن قط ، ولا الخلفيات ، لاشيء ســـوانا : أولادها . وفي أغلب الأحيـــان كانت تقوم بـ « لمنا » كي تلتقط صورة . فالصورة الجماعية أقل تكلفة ، فضلا عن بعض صـــور الهواة التي تلتقط لنا من طرف أصدقاء أمي . أو الزملاء الجدد الوافدين الى المستعمرة من أجل التقاط المناظر الطبيعية بالمنطقة الاستوائية ، حيث أشجار جوز الهند والحمالون وهم يرسلونها عادة الى أسرهم .

كانت أمي تنظر بوله الى صور أبنائها الملتقطة أثناء الأجازات . لم تكن تريد أن تذهب الى المدرســة . فلم يعرفها أخواى أبدا . أما أنا ، الصغرى ، فقد جرانى اليها ، ثم فيما بعد ذهبت اليها ، لأن خالاتى ، بسبب سلوكى المشين ، لم يردن أن يدفعن بناتهن لرؤيتي . ولم يعد أمام أمي سوى الصور التى تفرجنا عليها . تتطلع اليها أمنا بشكل عقلانى . ومقتنع ومنطقى . وتفرج لبنات عمومتها من الأوربيات صور أبنائها . كان عليها أن تفعل ذلك . فتفعل . فبنات عمومتها هن الباقيات من أهلهـا . تفرجهن على صور أعضاء أسرتها . ترى هل لاحظن شيئا فى هذه المرة ، غير هذه الطريقة فى التواجـد ؟ عبر هذا الموقف الذى نســلكه حتى النهاية دون أن تتخلى أبدا عنه . وان تتركه . فبنات العمومة يمكن أن ينفقن ، حسب اعتقادي ، ووسط هذه الشجاعة ، والعبث ، أجد نفسى فى قلق عميق .

وعندما أصابتها الشيخوخة وأصبح شـعرها أبيض كانت لاتزال تذهب الى المصور . تذهب بمفردها . تلتقط لها الصـــور وهى ترتدى ثوبهـا الأحمر الداكن الجميـل وقطعتين من الحلى ، بسلسلة البروش الذهبية واليشم . قطعة من اليشـــم المرصع بالذهب . وتبدو فى الصور وقد مشطت شعرها جيدا وخلا وجهها من التجاعيد . وذهب الأهالى القادرون أيضــا الى المصور بدافع

اثبات الوجود . عندما أدركوا أن الموت يقترب . كانت الصورة كبيرة . وكانت الخلفية مليئة بالمناظر . وجدوا أنفسهم محاطين باطارات مذهبة وتحدهم ديكورات تعود لزمن الأجداد .. والتقطت صور للجميع . رأيت الكثير من هذه الصور . يبدون جميعا وكأنهم نفس الشخص فى الصورة الواحدة . كان التشابه حالة هيسترية . ليسوا متشابهين فقط فى الشيخوخة . بل فى وجوههم التى أجريت لها عملية رتوش . وبشكل خاص فى الوجه . أما الرتوش التى لم تزل . فقد تحللت بفعل الزمن . كانت الوجوه تتحرك دائما بنفس الطريقة كى تواجه الخلود . لقد حجبت تماما . وعلاها الاصفرار . هذا ما كان يريده الناس . فبسبب هذا التشابه ترتد الذكرى عبر أعضاء الأسرة . هى أشبه بشاهد على تفرد الزمن ومدى أثره . انها متشابهة ومتقاربة لدى جميع أفراد الأسرة الذين يجب ان تكون لهم بصمة . فضلا عن ذلك فان كل الرجال يرتدون نفس الأشرطة . أما النساء فيرتدين نفس الكعوب وقد مشطن شعورهن بنفس التسريحة المسحوبة . يرتدى الرجال والنساء دائما نفس الأثواب ذات الياقة الجافة . ويبدو عليهم دائما نفس المظهر الذى تعرفت عليه أيضا من بين كافة الظواهر . وهكذا كانت تظهر أمى فى الصور مرتدية ثوبها الأحمر مثلهم بشكل ينم عن النبل . وعن أشياء أخرى محيت مع الزمن .

لم يتكلم أبدا عنها . انه شيء تم الاتفاق عليه . ولم يحاول مطلقا أن يواجه أباه كى يزوجه . لم يفعل هذا ازاء أى شخص . حتى بالنسبة للمهاجرين الصينيين الذين يشرفون على ادارة تجارة الكتب . وهذه الشرفات الزرقاء المرعبة الأكثر ثراء تطل على أرض الخيرات الممتدة فيما بين سادك وشولن . فى العاصمة الصينية عاصمة الهند الصينية الفرنسية . كان رجل شولن يعرف ان القرار هو قرار أبيه . وان الأطفال سيظلون صغارا وأنهم

بلا تجربة • وعند أول منعطف سـوف يسمح ان الرحيل الذى سيفصلهما هو فرصة ذهبية من أجل حكايتهما • وان هذه ليست من الطراز الذى عليه أن يتزوجه • ويجب عليه أن يهجرها وينساها • وان يعيدها لعشيرتها من البيض ، لاخوتها •

ومنذ أن أصـابه الهوس بجسدها ، لم تعان الصغيرة فى امتلاكه • وامتلاك بشرته الرقيقة • ولم تعان من أمها التى تقلق كثيرا مثلما كانت تفعل فيما قبل • وكأنها اكتشفت أن هذا الجسد جذاب بشكل معقول ، وربما أكثر من أى جسد آخر • خاصـة بالنسبة لعاشق شولن • وردد أن المناخ فى السنوات الماضية لم يكن محتملا • لقد صنعت منها أمها فتاة صغيرة ، فى هذا البلد بالهند الصينية • انه ناعم القبضة • وكثيف الشعر لدرجة أنه يستمد قوته من شعره الطويل كشعرها • أما هذه البشرة الملساء فى كافة جسده فقد ولدت من مياه المطر واحتفظ بها من أجل هموم النساء • والأطفال • قال ان نسـاء فرنسا لديهن بشرة جلد أقل نعومة • بل انها أكثر خشونة • قال أيضا أن سبب هذا هو التهـام الغذاء الفقير فى المنطقة الاستوائية • غذاء مصنوع من السمك والفاكهة • كما أن للملابس القطيفة والحريرية التى يرتديها لها تأثير • فهى ملابس رفلة • تترك الجسد بعيدا عنها •• حرا وعاريا •

التف عاشق شولن حول المراهقة الصغيرة • دفعتها المتعة الى الارتباط بزمنه وحياته • لم يكن يحدثها كثيرا أعتقد أنهـا لاتفهم كثيرا ما يقوله لها • وعن هذا الحب الذى لم تكن تعرفه جيدا • لم يجد الحديث عنه • اكتشف انهما لم يتكلما أبدا أجل • أعتقد أنه لم يعرف • واكتشف أنه لايعرف •

نظر اليها • عيناها منغلقتان • نظر اليها من جديد ، تنسم وجهها ، وتنسم الطفلة • وعينيها المنغلقتين • تنسم أنفاسها •

هذا الهواء الساخن الذى يخرج منها · استطاع ان يميز بشكل قاتل كل حدود هذا الجسد · انه ليس مثل بقيــة الأجساد · لم بنته بعد · فلاتزال الحجرة باقية · ليست هناك أشكال ثابتة · عليه أن يفعل فى كل لحظة · لم يكن موجودا فقط حيث يراها · كان أيضا في كل مكان ، يتمدد تحت سـمعها وبصرها · يمارس اللعبة ، لعبة الموت · الموت المرن · يرحل فى كل مكان باحساس المتعة · لايملك أى سوء للنية · وصاحب ذكاء خارق ·

نظرت الى كل ما يفعله بى · لم أفكر قط فيما يمـكن أن يفعله بهذه الصورة · اقتفى أثر أملى ورغبتى · وهكذا أصبحت طفلته · وأصبح شيئا آخر بالنسبة لى · بدأت فى معرفة المتعة التى يصعب التعبير عنها · أما وراء هذا · فهناك رجل آخر عليه أن يمر بجوار الغرفة · شاب قاتل · لم أعرفه بعد · لايبدو منه شىء أمام عينى · لعله صبى أو شاب يحب أن يمر بجوار الغرفة · أحس أحيانا أننى أعرفه · قد يكون موجودا · وأخبر عاشق شولن بذلك · أحدثه عن رقته المتناهية · وعن شـجاعته فى الغـابة · وأثناء النهار · الغابة المليئة بالفهود السوداء · أصبحت طفلته · وبهذه الطفلة أحس بالخوف ، وفجأة ، أحس بالقلق على صحته · وكأنه اكتشف أنه مخلوق ميت · وأنها يجب أن تكون ضامرة · وفجأة · أحس بالخوف بشكل بشع · ومن جراء هذا الألم الذى أصاب رأسها أحست أنها ستموت كأبيـه · وأنها غير قادرة على الحركة · فوضعت عصبة مبللة فوق عينيها · وأحست باشمئزاز ينتابها أحيانا · تفكر فى أمها وأنها سوف تصرخ وتبكى من جراء فكرة أنها لاتستطيع تغير من القدر · وأن عليها أن تجعل أمهـا سعيدة قبل أن تموت · فهى مقتولة من كل هؤلاء الذين يريدون بها شرا · وضع وجهها فوق وجهه وهى تنخرط فى دموعها · أصابها جنون من الرغبة فى أن تبكى من الغضب ·

ضمها اليه كمن يضم طفلته • وكأنه يضم ابنته • وكأنه يداعب جسدا صغيرا • ادارها نحوه • غطى وجهها وفمها وعينيها • ومرة واحدة توسلت اليه • ولم تقل أبدا لماذا تتوسل • صرخ فيها أن تسكت • ثم تعانقا من جديد • وها هو العناق ينفك ، ويخضعانه فى حالة من الدموع واليأس والسعادة •

التزما الصمت طيلة المساء • فى السيارة السوداء التى أقلتها الى البنسيون • وضعت رأسها فوق كتفه فأزاحها • حدثها أنه من الأفضل أن تصل السفينة الفرنسية فى أقرب وقت وأن تأخذها ويفترقان • التزما الصمت فترة من الوقت • ثم سأل السائق أن يمشى بطول النهر ، وأن يقوم بدوره • نامت منهكة الى جواره • فأيقظها بقبلاته •

فى البدء كان الضوء أزرق • وانبعثت رائحة البخور الذى يشتعل دائما عند الغروب • كانت الريح ساكنة • ففتحت كافة النوافذ باتساعها • لم تكن هناك نسمة هواء • خلعت حذائى حتى لا أحدث ضجة • أعرف ان المراقبة لم ترفع عنى بعد • وانه من المقبول الآن أن أعود فى الساعة التى أحددها ليلا • سأذهب توا لأرى هـ • ل • (هيلين لاجونيل) وأنا أشعر بقليل من القلق • وأرى الخوف الذى استبد بها فى البنسيون أثناء النهار • انها هناك تنام ملء جفونها • هـ • ل • تنام عادة نوما عنيدا وعدوانا مليئا بالرفض • فتحيط رأسها بذراعيها العاريتين • وتترك نفسها على سجيتها • فينام جسدها مثلما تفعل كل البنات • وقد ثنيت قدميها • لا يمكنك أن نرى من وجهها سوى أذنيها المتدليتين • خمنت أنها تسمعنى ثم تصنعت النوم • وانها مصابة بحالة من العصبية والغضب • كان عليها ، أيضا ، أن تبكى • ثم تسقط فى الهاوية • أردت أن أوقظها • وان نتكلم معا بصوت خفيض • فأنا لم أتكلم مع رجل شولن • ولم يتكلم معى • أنا فى حاجة

لأن أسمع أسئلة هـ ٠ ل ٠ فلديها قدرة لاتقارن على الانتباه أكثر من أناس لايسمعون ما يقولونه ٠ لكن ليس من السهل ايقاظها ٠ لقد سبق أن أيقظتها ، وسط الليل ، مرة ٠ ولم تستطع هـ ٠ ل أن تنام بعد ذلك ٠ قامت ٠ وأحست بالرغبة في الخروج ٠ وجعلتها تفعل ٠ نزلت السلم ٠ واتجهت نحو الدهليز والفناء الواسع الخالى ٠ ثم جرت ٠ ونادتنى ٠ أحسست بسعادة غامرة ٠ لايمكن للمرء أن يفعل شيئا ازاء هذا ٠ وعندما اقترحت عليها النزهة ٠ عرفت أن هذا هو ما تنشده ترددت ٠ لا ٠ لن أوقظها ٠ وتحت الناموسية كانت الحرارة خانقة للغاية ٠ وعندما أغلقتها بدت غير محتملة بشكل حاد ٠ أعرف أن سبب هذا هو أننى قادمة لتوى من الخارج ٠ من عند شاطىء النهر ٠ كان الجو منعشا طيلة المساء ٠ اعتدت على ذلك لم أتحرك ٠ وأردد على مسامعى الأشياء وهى تتحرك وتتحرك ٠ لم أنم لتوى رغم كل المتاعب الجديدة التى حلت بحياتى ٠ فكرت في رجل شولن ٠ لعله الآن فى احدى علب الليل فى ناحية عند مصب النهر ٠ مع سائقه ٠ لعلهما يشربان معا فى صمت . شرابا مصنوعا من كحول الأرز عندما يجلسان معا . أو لعله عاد الى بيته ٠ نام فى حجرته المضيئة ٠ دون أن يتكلم كالعادة ، مع أحد ٠ لم أحتمل التفكير ، فى هذا المساء ، فى رجل شولن ٠ ولم أحتمل هذا أيضا من هـ ٠ ل ٠ يبدو أن لديهم أوقاتهم التى يشغلونها ٠ لقد جاءهم هذا من خارج أنفسهم ٠ يبدو أننى لا أمتلك سوى هذا ٠ قالت الأم : لن تكونى أبدا سعيدة فى شىء ، وأعتقد أن حياتى بدأت فى الصعود بداخلى ٠ اننى مخلوق وحيد ٠ وعلى أن أرتب نفسى ٠ وأننى لم أعد وحيدة منذ ان اجتزت الطفولة ٠ سأذهب لأكتب كتبا ٠ تراءى لى كل هذا فى لحظة ٠ فى الصحراء الشاسعة التى بدأت فى اطار ملامحها أقسم حياتى ٠

لم أعرف كثيرا ماذا جاء من كلمات فى برقية سايجون • واذا كانت قد ذكرت ان أخى الصغير قد مات • أو اذا كانت قد قالت : « اذكروا الله • اذكر ، كما يبدو لى ، أنها « اذكروا الله » • لقد تجاوزنى الحدث ليس من المعقول ان ترسل لى برقية تخبرنى فيها أن أخى الأصغر مات • أولا لأن هذا شىء لايمكن أن يحدث • ثم فجأة ، ومن أعماق كل مكان بالكون ، حل الألم ، وغطانى تماما ، وركب فوق ظهرى • ولم أدر بشىء حولى • ولم يعد هناك سوى الألم ، الذى لم أعرف مداه • فالأم التى تفقد طفلا قبل أن تلده ببضعة أشهر تحس بالألم • الآن أعتقد أن هذا ألم جديد - لقد مات طفلى عند ولادته ولم أعرفه قط • لم أشأ أبدا أن أقتل نفسى هناك مثلما أردت أن أفعل عندما سمعت بنبأ وفاة أخى •

خدعنا هذا الخطأ ، لبضع لحظات • فغزا كل العالم • وحلت الكارثة من أعتاب السماء • فقد مات أخى الصغير • ولن تراه بعد ذلك • انساب الخلود فى جسد هذا الأخ الأصغر أثناء حياته ولم نره الا فى هذا الجسد الذى يسكنه الموت • مات جسد أخى ومات الخلود معه • وراح ناحية عالم آخر • مخصص لهذا الجسد الذى زاره • هذه الزيارة التى خدعتنا بشكل جذرى • وغزا الخطأ كافة أرجاء الكون وسرت الكارثة •

مات أخى الأصغر بالضبط فى اللحظة التى مات فيها • فالموت أشبه بسلسلة بدأت حلقاتها منذ أن كان طفلا •

لم تحس بجسد الطفل الميت فى أى من هذه الحوادث التى كانت سببا فى هذا • الخلود الذى بلغه طوال سبعة وعشرين عاما من حياته • لم يعرف فيها اسمه •

لم يره أحد عن قرب مثلما رأيته • وفى اللحظة التى عرفت بذلك • وبكل بساطة • عرفت أن جسد أخى الصغير هو أيضا

جسدى ، كان يجب أن أموت • بل لقد مت فعلا • فأخي الصغير يشبهني • وقد جرنى معه • فمت مثله •

يجب أن نحدث الناس حول هذه الأشياء • وان نعلمهن أن الخلود شيء مميت وأنه يمكن أن يموت ، وان هذا يحدث • بل انه يحدث • وشيء لا مثيل له أبدا • لا مثيل له أبدا لا يوجد سوى بعض التفاصيل حول الأساسيات • وأن أشخاصا ما يمكنهم ان يتمهلوا الحاضر لدى هؤلاء الناس ، وفي نفس الظروف • انهم يجهلون القوة الذاتية للخلود • ماذا يمكنهم بينما يعيش ، الخلود نفسه • فالحياة أبدية • بينما هو على قيد الحياة • فالخلود ليس سوى مسألة زيادة في العمر أو نقصانه • أو ليس هذا من أمر الخلود • بل هذه مسألة أخرى تظل مجهولة • يجب أن تقول انها بلا بداية أو نهاية • فقط عليهـا أن تبدأ • كالروح التى تدفعها الريح • انظر الى الرمال الميتة في الصحراء • وأجساد الأطفال الميتين • ولا يمر الخلود أبـدا من هناك • بل يتوقف • ويرجع القهقرى •

كان أخي الأصغر مبتهجا دوما • يعيش خلودا بلا خطايا • وبلا أساطير وبلا أحداث . نقيا ليس له سوى منفذ واحد . لم يكن لدى أخي الأصـغر شيء يصرخ به في الصـحراء • لم يكن لديه ما يقوله ، هنا أو هناك • لا شيء • لم يتلق أى قسط من التعليم • ولم يستطع ان يتلقى سوى أساسيات التعليم • لم يكن يجيد سوى الكلام بعض من القراءة والكتابة • كان يؤمن ، أحيانا ، أنه لم يجرب المعاناة • وأنه شخص لا يفهم • ومصاب بالخوف •

هذا الحب الأحمق الذي أكنه له ، ظل بالنسبة لى متعذرا وغامضا • لم أكن أعرف أبدا لماذا أحببته الى هذا الحد ، أردت أن أقتل موته • انفصلت عنه قبل سبعة عشر عاما • لم أكن أفكر فيه

الا لماما . أحببته بدورى بشكل دائم . فلم يعد هناك شىء آخر يمكنه أن يطال هذا الحب .. ونسيت الموت .

قليلا ما نتكلم معا . وقليلا ما نتكلم عن الأخ الأكبر . عن تعاستنا ، ومأساة أمى . وشرودها . نتكلم عن الصيد ، وعن البنادق ، والميكانيكا ، والسيارات . ويغضب عندما تتحطم السيارة . ويحكى لى . ويحدثنى عن السيارات الرديئة التى امتلكها فيما بعد . عرفت كل ماركات بنادق الصيد . والسيارات القديمة . تكلمنا أيضا ، وبكل تأكيد عن صيد النمور التى تقع فى الكمين المنصوب لها دوما . اذ لم تستمر فى السباحة مع التيار . أما أخى الأكبر فكان يكبرنى بعامين .

توقفت الرياح . وتحت الأشجار كانت الأضواء السفلى تنبثق مع المطر . وتصدح العصافير من أعماقها وهى تنقر الهواء البارد بمناقيرها . وتجعله يدق فى كل اتجاه تصدح بطريقة مليئة بالاصرار .

انزلقت العبارة فوق نهر سايجون . وتوقفت المحركات . وجروها بجرارات . حتى مراسى الميناء الموجودة فى جداول نهر الميكونج التى فى أطراف سايجون . يسمى هذا الجدول ، وهذا الفرع من الميكونج بالنهر . رست العبارة طوال ثمانية أيام . فى نفس المكان الذى ترسو فية السفن . حطت السفينة « فرنسا » هناك . يمكنك أن تقابل النساء فى السفينة « فرنسا » . وان ترقص معهن فالسفينة غالية بالنسبة لأمى . فهى لا تستطيع على مصروفاتها . ولكن معه ، عاشق شولن ، كان يمكننا أن نذهب الى هناك . لم يكن يخيل الى ذلك لأنه يخاف ان يراه أحد مع الفتاة البيضاء صغيرة السن . لم يقل هذا لكنها كانت تعرف . فى هذه الآونة لم يكن هذا أمرا بعيد المنال . فقبل خمسين عاما لم تكن السفن

تبحر الى كل مكان فى العالم . كانت هناك رحلات كثيرة تقوم بين القارات عبر الطرق البحرية . لم تكن هناك سكك حديدية . فوق مئات وآلاف الكيلو مترات من الأمتار السريعة . لم يكن يوجد سوى الطرق البدائية . والعبارات التى تنقل البعثات البحرية والفرسان مثل بورنوس ود ارتنيان واراميس الذين يربطون الهند الصينية بفرنسا .

استغرقت هذه الرحلة أربعة وعشرين يوما . وكانت العبارة تسير فى مدن بهـــا شوارع وأحياء ومقاه ومكتبـات وقاعات ، وملتقيـات ، وعشـــاق ، وسرابات ، وأموات ومجتمعات تتشكل بالمصادفة والجبر . كنا نعرف ذلك . ولا ننساه أبدا . علينا أن نفعل ما يجعل الحياة قابلة لأن نعيشها . ولا ننساها . هناك رحلات مخصصة للنساء . حيث توجد الكثيرات منهن بصفة خاصة . ولكن بالنسبة لبعض الرجال أحيانا . كان السفر بدافع يجعل الذهاب للمستعمرة مغامرة حقيقية . أما بالنسبة لأمى . فقد كان السفر دائما أثناء طفولتنا المبكرة « أجمل أشياء الحياة » .

الرحيل ، هو دائمـا الرحيل . كانت أول رحلة لها فوق البحار . تبتعد فيها عن الأرض . الرحيل بسبب الألم دائما . وأيضا اليأس . لكن هذا لم يمنع الرجال من الرحيل . وكذلك اليهود . ورجال الفكر والمسافرون لرحلة واحدة فوق البحر . لم يمنع هذا الكثير من النساء أن يقمن برحلة . هؤلاء اللاتى لم يرحلن أبدا . طلبن البقـــاء فى الوطن الأم . حيث الأهل والخيرات . والأسباب الدافعة للعودة . وطوال قرون والمراكب تقوم بالرحلات ببطء شديد . أكثر مأساوية مما هى عليه فى أيامنا . فقد كان وقت الرحيل يستغرق مسافات طويلة بطريقة طبيعية . اعتدنا على هذا الايقاع الآدمى البطىء على الأرض وفوق البحر . وقد سبب هذا الايقاع أن يقوم الانسان بانتظار الريح ، والبرق ، والرعد ،

والشمس ، والموت . والعبارة التي عرفت الفتاة البيضاء الصغيرة كانت هناك في آخر دورات العالم . حدث هذا أثناء شبابها . وفيما بعد دشنت أول خطوط الطيران وأصبحت ، بالتتابع ، مخصصة للبشر بالسفر عبر البحار .

كنا نذهب يوميا الى شقته في شولن . ويفعل كالعادة . يتصرف كعادته طيلة أوقاتنا ، ثم يقوم بغسلي بمياه الجركن ويحملني فوق السرير .. ويأتي على مقربة مني . ويتمدد . لكنه بلا حول أو قوة . لقد تم تحديد موعد الرحيل الذي كان بالنسبة لي ، فيما قبل ، بعيدا . لم يكن يستطيع ان يفعل شيئا بجسدي . حدث هذا بشكل بشع . تحت بصره وسمعه . لم يكن يرغب بجسده . لم يردني أن أرحل . خانه التوفيق . قال : لا أستطيع أن أضحك . اعتقد أنني أستطيع أن أفعل . قد لا أتمكن الآن . أخبرني أنه مات . وارتسمت على شفتيه ابتسامة اعتذار بالغة الرقة . قال ان هذا ربما لا يتكرر أبدا . سألته ان كان يريد هذا فضحك وقال : لا أعرف . لعله تمتم « نعم » ظلت رقته باقية تتمثل في أعماق الألم . لم يتكلم عن هـــذا الألم . لم ينطق بكلمة . يرتعد وجهه . أغلق عينيه واصطكت أسنانه . ظل ساكنا خلف الخيالات التي يراها بعينيها المغلقتين . قال انه يحب هذا الألم . يحبه مثلما يحبني . بقوة شديدة ربما حتى الموت . بل انه يفضله عني . قال ، في هـــذه المرة ، انه يريد أن يداعبني لأنه يعرف أن لدي رغبة في ذلك وأنه يريد أن ينظر الى عندما تتولد الرغبة . وفعل ذلك . نظر الى ، في تلك اللحظة ، وناداني كأنني طفلته . ثم قرر الا نلتقي ثانية . لم يكن هذا ممكنا . بل مستحيلا . فنحن نلتقي كل مساء أمام المدرسة في سيارته السوداء رأيته رأسه خجلا .

عندما جاءت ساعة الرحيل . أطلقت السفينة ثلاث صفارات من نفيرهـــا . صفارات طويلة ومرعبـــة . انتشرت في كافة أنحاء

المدينة . انطلقت ناحية باب السماء التي تغشاها السواد . اقترب عمال السحب من السفينة وجروها ناحية الطريق الرئيسي للنهر . ثم قام العمل باطلاق العنان للأحبال . لم يكن هناك شخص يفكر فيها . تحركت السفينة ببطء شديد . واندفعت فى طريقها بتأثير قوتها الذاتية فى النهر . ورأينا هيكلها يتقدم ناحية البحر ، وتباطأت الصفارات شيئا فشيئا وأخفضت النساء المناديل والايشاربات . وأخيرا بدت الأرض من فوق السفينة كأنها فى منفاها . وفى وسط النهار رأيناها وهى تختفى ببطء .

حدث هذا عندما أطلقت السفينة وداعها الأول . بعد أن تم رفع الهلب وبدأ عمال السحب فى اطلاق سراحها وابعادها عن الأرض . فبكت . فعلت ذلك دون ان تكشف عن دموعها . لأنه كان صينيا ، ويجب الا تبكى هذا النوع من العشاق دون ان تكشف لأمها ولأخيها الصغير أنها تكاد أن تفعل ذلك ، ودون أن تكشف لها بخباياها . وكأن هذه هى العادة فيما بينهما . وقفت السيارة السوداء الطويلة هناك . وفى المقدمة يجلس السائق بملابسه البيضاء . كانت السيارة على وشك أن تبتعد عن المدينة . وعن سيارات البعثات البحرية المعزولة . عرفته بهذه العلامات . يجلس فى الخلف . هذا الأمر يصعب نسيانه . لا يتحرك وهو يجلس فى مقصورته . استندت على سور السفينة مثلما فعلت فى المرة الأولى فوق العبارة . تعرف أنه يتطلع اليها . نظرت اليه عن بعد . لم تره ثانية لكنها ظلت تنظر ناحية هيكل السيارة السوداء . ثم لم تستطع رؤيته . لم تعد تراه واختفى الميناء . ثم الأرض .

عبرت بحر الصين ، ثم البحر الأحمر . والمحيط الهندى . وقناة السويس . تستيقظ فى الصباح . وترتجف من الهجران . تتقدم السفينة فى طريقها . فى هذا المحيط الكبير . البالغ الاتساع . الذى يصل الى القطب الجنوبى . المسافة طويلة بين

الموانيء بين سيلان والصومال . كان المحيط أحيانا أكثر هدوءا . وأحيانا أكثر نقاء وأحيانا أشد رقة . كنا نحس أحيانا أننا في رحلة عبر البحر . وتتفتح كل السفن . والصالونات . وممرات السفن . والنوافذ ، ويهرب العابرون من حرارة الجو في مقصوراتهم . وينامون فوق سطح المركب .

وخلال رحلة السفر . وأثناء عبور المحيط ، وفي وقت متأخر من الليل يموت شخص ما ، لم نكن نعرف الخبر الا فيما بعد . سواء أثناء هذا السفر أو في سفن آخر . هناك ناس يلعبون الكوتشينة في بار الطلائع . ومن بين هؤلاء اللاعبين يوجد شاب ، وفي لحظة من اللحظات ، ودون أن يتكلم . يخسر الشاب كل أوراقه . فيخرج من البار . ويعبر سطح السفينة جاريا . ثم يرمي بنفسه في المحيط . ولا تتوقف السفينة التي تسير بأقصى سرعتها : ويضيع جسد الشاب . لم نكن نعرفه لعله من السفينة . أو من مكان آخر . سمعت الحكاية تتردد . قيل انه من سبادك . ابن محافظ سادك . لقد عرفته . كان أيضا في مدرسة سايجون . تذكرته جيدا . وجهه الأسمر البالغ الرقة . وعوينتيه الصغيرتين . لا شيء آخر لم يعثر على أي رسالة في مقصورته . وظل الأمر ماثلا في الذاكرة . نفس السن . سبعة عشر عاما . عاودت السفينة الرحيل في الفجر . يا له من فجر مرعب . وحين أشرقت الشمس بدا البحر خاويا . .

وفي مرة أخرى . وخلال نفس الرحلة وأثناء عبور نفس المحيط : وفي بداية الليل . وفوق سطح السفينة عزف فالس شوبان الذي لا تحفظه جيدا : حاولت أن تتعلمه طوال أشهر . لم تتمكن أبدا من عزفه بشكل مباشر . فعلت أمها ذلك عندما أجبرتها على ترك البيانو . في هذه الليلة التي ضاعت بين الليالي ، كان هناك شيء أكيد . فقد وقفت الفتاة فوق سطح السفينة ، ثم بدأ

عزف موسيقى شوبان تحت سماء تومض بالبريق لم تهب نسمة ريح واحدة • انتشرت الموسيقى فى كل مكان من العبارة السوداء • كأنها أصداء السماء الذى لا نعرف كيف تتعامل معها كأنها ثروتها • تجهل فحواها • تتحرك الفتاة الصغيرة كأنها تنوى ان تقتل نفسها • وان تلقى بنفسها فوق البحر • ثم تبكى لأنهــا فكرت فى رجل شولن • لم تكن واثقة أنها ستحبه كل هذا الحب حب لم تعرفه لأنها ضاعت فى خبايا التاريخ • مثل المياه فى الرمل • لقد استعادته الآن عندما انبعثت الموسيقى التي انزاحت ناحية البحر •

وبعد قليل من الزمن ، عبر أخوها الخلود من درب الموت •

ينام الناس من حولها على أنغام الموسيقى • لكنهم لا يستيقظون عليها ، هادئين • فكرت الفتــــاة أنها جاءت هنا كى ترى الليل ، أكثر هدوءا • انه قادم دوما من المحيط الهندى • تخيلت أنها فى أثناء هذه الليلة رأت أخاها الأصغر فوق سطح السفينة مع امرأة • استندت الى سور السفينة • ودققت النظر • كانا يتبادلان القبلات • انحنت الفتاة كى ترى بشكل أفضل • عرفت المرأة التى كانت مع أخيها الأصغر • لا يزالان متعانقين • انها امرأة متزوجة • وقد سبق لها أن ترملت مرتين. تظاهر الزوج أنه لايعرف شيئا • وفي أثناء الأيام الأخيرة من رحلة الأخ الأصغر • ظلت هذه المرأة طيلة النهار فى مقصورته • لم يخرجا الا فى المساء • وطوال تلك الأيام ظل الأخ الأصــغر ينظر الى أمه وأختــه دون أن يعرفهمـــا بما يحدث • أصبحت الأم نافرة • • صامتة ، وغيورة • أما الصغيرة فكانت تبكى • لعلها كانت سعيدة ، فى هذه الآونة ، كانت خائفة مما سيحدث فيما بعد لأخيها الأصغر • اعتقدت أنه سيتركهما • وأنه سيرحل مع هذه المرأة • ولكن أبدا • فقد لحق بهما عقب وصوله الى فرنسا •

لم تعرف الفتاة الصغيرة ، كم مر من الوقت بعد هذا الرحيل ، وكيف تم تنفيذ أمر الأب • فاستطاع أن ينفذ الزواج الى أمر به • الذى عقده مع الفتاة التى اختارتها العائلة منذ عشر سنوات • فتاة مليئة بالذهب ، الذهب والزبرجد ، صينية قادمة من الشمال • من مدينة فوشون • جاءت فى صحبة أسرتها •

مر وقت طويل ، لم تستطع أن تفعل له شيئا • لم تتمكن أن تلد له من يرث ثروته • ظلت ذكريات الفتاة البيضاء هناك ، راقدة ، بجسدها ، فوق السرير ، كان يجب ان تظل هناك مدة طويلة • كانت الرغبة هى السبب لتدفق كل هذه المشاعر ولرقتها المتناهية • والشهوانية المرعبة معتمة الأغوار • ثم جاء اليوم الذى أصبح فيه كل شىء ممكنا • حسب رغبة الفتاة البيضاء الصغيرة وان تكون هكذا • اصابة التردد لدرجة يمكنه بها ان يتخيل صورة حبيبته كاملة حين تنتابه الرغبة بقوة وهو صورة الطفلة البيضاء يخترق المرأة الأخرى حتى تكتمل الرغبة التى يبديها نحوها • كان عليه ان يستعيد صورة الطفلة البيضاء بأكذوبة من داخل هـــذه المرأة • فبالكذب يفعل ما تراه العائلات ، والسماء ، حلالا • حيث ينتظر منه اصهاره فى الشمال ان يعرف حق الميراث • وان يخلد اسمهم •

لعلها عرفت حكاية الفتاة البيضاء الصغيرة • فلديها خادمات من سادك يعرفن الحكاية وعليهن أن يتكلمن • ولا يجب ان تتجاهل معاناتها • كانت كلتاهما فى نفس السن ، ستة عشر عاما • ترى هل رأت زوجهـا يبكى فى ليلة عرسهمـا ؟ وهل كان ذلك سببـا للتسرية عنه ؟ فتاة صغيرة فى السادسة عشرة وخطيبها الصـينى فى الثلاثين • أليس من اللياقة والأدب أن تواسيه فى هذه المعاناة الناضجة التى يعيشها ؟ من يعرف ، ربما انها مخدوعة . لعلهـا

تبكى معه • لعلها تتكلم طيلة الليل • ثم جاء الحب بعد ذلك • بعد البكاء •

لم تعرف الفتاة البيضاء الصغيرة تفاصيل أى من هذه الأحداث •

وبعد سنوات من الحرب ، ومن الزيجات ، والأطفال ، والطلاق ، والكتب جاء الى باريس مع زوجته • وخابرها بالهاتف • هاأنذا • عرفته من صوته • قال : أريد فقط ان أسمع صوتك • قالت : انه أنا • صباح الخير • بدا جريئا ولكنه لا يزال خائفا كسابق عهده • ارتعد صوته فجأة • ووسط هذه الارتجافات ، سمعت نبرته الصينية • يعرف أنها بدأت في تأليف الكتب عرف ذلك من أمها التى قابلها فى سايجون • وأيضا من أخيها الصغير ، الذى كان حزينا من أجلها • لم يعرف ماذا يقول • لكنه تمتم قائلا مثل سابق عهدهما أنه لا يزال يحبها • وانه لا يمكنه أن يكف عن حبها وسوف يحبها حتى آخر حياته •

مرجريت دوراس

نوبل لوشاتو ــ باريس

فبراير ــ مايو ١٩٨٤

صدر من هذه السلسلة

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٤٥٧٨/١٩٩٠

ISBN — 977 — 01 — 2449 — 4

العاشق رواية تنتمى إلى تيار الرواية الجديدة التى ظهرت فى فرنسا وقادتها مجموعة من بينهم مؤلفة هذه الرواية « مارجريت دوراس » وقد فازت الرواية بجائزة « الجونكور » عام ١٩٨٤ .

« والعاشق » رواية من ذلك النوع الذى ينتمى إلى التجارب الذاتية لمؤلفيها وهى تجربة عاشتها الكاتبة مع أسرتها فى الهند الصينية خلال الحرب الفيتنامية بما ضمت من أحداث ومواقف إنسانية جديرة بالتأمل .

مطابع الهيئة المصرية العامة

١٤٠ قرشـــا